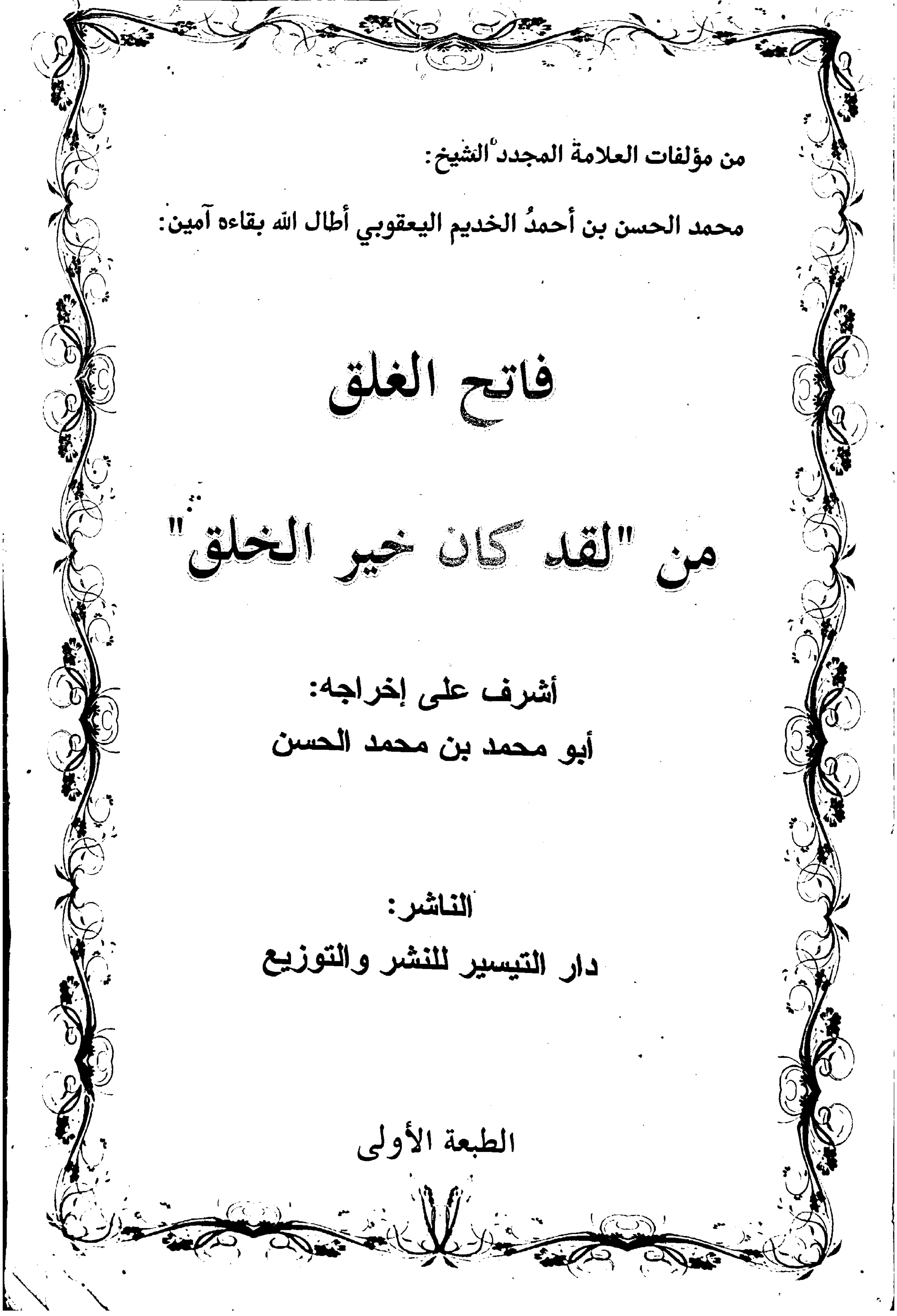


من مؤلفات العلامة المجدد الشيخ:

محمد الحسن بن أحمدُ الخديم اليعقوبي أطال الله بقاءه آمين:

فاتح الغلق

من "لقد كان خير الخلق"

أشرف على إخراجه:

أبو محمد بن محمد الحسن

الناشر:

دار التيسير للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

من مؤلفات العلامة المجدد الشيخ:

محمد الحسن بن أحمدُ الخديم اليعقوبي أطال الله بقاءه آمين:

فاتح الغلق

من "لقد كان خير الخلق"

أشرف على إخراجه:

أبو محمد بن محمد الحسن

الناشر:

دار التيسير للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين، خاتم النبيئين وإمام المرسلين، المنَزل عليه في الكتاب الحكيم، ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ وعلى ءاله وصحبه ومن تلاه، وكل من اهتدى بهداه.

أما بعد؛ فيقول الفقير لرحمة ربه، أسير ذنبه، ورهين كسبه، محمد الحسن بن أحمدُ الخديم، الشمشوي، اليعقوبي، الجوادي: هذا تعليق وضعته على القصيدة التي مطلعها:

لقد كان خير الخلق أبهر طلعة إلخ للشيخ العارف بالله، الجامع بين الشريعة والحقيقة، سيدي أحمد زروق، محتسب العلماء والأولياء، بيد أن شهرته رحمه الله تعلى تغني عن التعريف به، وذلك أني لما وقفت عليها؛ استحسنتها، وكان لها موقع في قلبي، لحسن ما اشتملت عليه من أوصاف سيد الأولين والآخرين الخَلقية، والخُلقية، فسنح لي أن أضع عليها تعليقا، تطفلا مني على بركة ممدوحها ذي القدر المنيف، ورجاء مني للانخراط في سلك خدام ذلك الجناب الشريف، وقد قال ابن زكري في شرح الفريدة للسيوطي: إن من يحكي كلاما – وهو مستحسن له راض به – محكوم عليه بما يقتضيه؛ فمن حكى ثناء وحمدا؛ فهو حامد، أو ذما؛ فهو ذام إذا كان على الطريقة المذكورة.

هذا وقد اعتمدت في هذا التعليق على النسيم: شرح الخفاجي لشفا عياض، وعلى شرح علي القاري للشفا أيضا، وعلى جسوس، وابن سلطان، والمناوي؛ كلهم على الشمائل للترمذي، وعلى المواهب للقسطلاني، وشرح الزرقاني له، وعلى الإحياء، وشرحه للزبيدي، وعلى المناوي على الجامع الصغير، فهذه الكتب يرجع إليها فيما أشكل منه، نعم ربما نقلت من غيرها.

وقد ظفرت بشرحين على هذه القصيدة؛ أحدهما للعلامة عبد القادر بن محمد المجلسي – رحمه الله تعلى – والثاني لأخينا في الله، ابن عمنا،

العالم السَّني السُّني: محمد بن أحمد مسكه اليعقوبي البارِكِلي حفظه الله تعلى، ومنهما استفدت كثيرا؛ فالله يجزي الجميع خيرا.

وممن أشاد بها العالم العارف بالله الشيخ ماء العينين في مقدمة كتابه: "دليل الرفاق" وقال: إنه أوردها تبركا بها، وإن لها بركة عظيمة، وإن من كتبها وجعلها في منْزله؛ أمن من الصواعق، والغرق، والحرق، ومن السلطان الجائر، ومن الفقر، ولا يزال الخير كله في منْزله ما دامت فيه صفة رسول الله صلى الله تعلى عليه وسلم.

وفي "الحلة السيرا" عن كتاب اللباب: أن من كانت صفته صلى الله تعلى عليه وسلم في منْزله، أو بين أمتعته؛ أمِن من الغرق، والسرق، والحرق، والجور، وجلب إليه السرور هـ

وفيها أيضا أنه تجب معرفة صفاته ﷺ.

وقد سميت هذا التعليق: **"فاتح الغلق من لقد كان خير الخلق"** وافتتحته بمقدمة، وختمته بخاتمة تتعلق بالتوسل، والتبرك، وزيارة الأولياء؛ فالله يضع عليه القبول، ويجعله من صالح العمل المقبول، ويكسبني به الذكر الجميل، ويثيبني به الأجر الجزيل، فإنه المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

مقدمة تشتمل على فوائد، **الأولى**: قال في نور البصر: إنه يدخل في العلم: ما اشتمل من الشعر على مدحه صلى الله تعلى عليه وسلم؛ فإن فيه ذكر بعض مزاياه، وخصائصه، ومعرفة ذلك من العلوم الشرعية المرغب فيها.

وقال القاضي عياض في "بغية الرائد": إنه لا ينفك أحد من إنعام رسول الله صلى الله تعلى عليه وسلم؛ لأن الله تعلى بعثه للناس كافة، وهداهم، ورحمهم به، فكلهم تحت نعمته، والثناء عليه فرض لا يتم الإسلام إلا به. انتهى منه بلفظه.

وقال ابن أبي جمرة رضي الله تعلى عنه في "بهجة النفوس": إن ما كان من الشعر في مدحه صلى الله تعلى عليه وسلم؛ فهو قربة إلى الله تعلى، وقد كان هو صلى الله تعلى عليه وسلم يحض عليه، مثل قوله صلى الله تعلى

عليه وسلم لحسان: «أَجِبْهُمْ عَنِّي»؛ فقال له حسان: والله لأَسُلَّنَّكَ منهم كما تسل الشعرة من العجين، أو كما قال. انتهى منه.

وقال ابن عجيبة في تفسيره: إن الغلو في مدح النبي صلى الله عليه وسلم مرخص فيه؛ فلا باس أن يبالَغ فيه، ما لم يخرجه عن طور البشرية، وهذا غلو ممدوح، مقرب إلى الله تعلى؛ قال في بردة المديح:

دَعْ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمُ   وَاحْكُم بِمَا شِئْتَ مَدْحاً فِيهِ وَاحْتَكِمِ

انتهى منه. وسيأتي قول الشيخ: فَمَدْحُكَ بالنَّظْمِ الْمُجَوَّدِ إلخ.

وقال الشيخ محمد اليدالي – رحمه الله تعلى – في أوائل شرح "صلاة ربي": إن مدحه صلى الله تعلى عليه وسلم أفضل الأعمال؛ لحديث: «مَنْ مَدَحَنِي وَلَوْ بِبَيْتٍ وَاحِدٍ كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ». انتهى منه.

وقال الشيخ سليمان الجمل في أول "الفتوحات": إنه مما يتعين على كل مكلف أن يعتقد أن كمالات نبينا صلى الله تعلى عليه وسلم لا تحصى، وأحواله وصفاته لا تستقصي، وأن المادحين لجنابه العلي، والواصفين لكماله الجلي؛ لم يصلوا إلا إلى قُلٍّ من كل، لا حد لنهايته؛ فهم مقصرون عما هنالك، قاصرون عن أداء كل ما يتعين من ذلك، كيف وءاي الكتاب مفصحة عن علاه بما يبهر العقول، ومصرحة من صفاته بما لا يستطاع إليه الوصول، وإنه لو بالغ الأولون والآخرون في إحصاء مناقبه؛ لعجزوا عن إحصاء ما حباه به مولاه الكريم من مواهبه، قال الزركشي: ولهذا لم يتعاطَ فحول الشعراء المتقدمين مدحه صلى الله تعلى عليه وسلم، وكان مدحه عندهم من أصعب ما يحاولونه، فإن المعاني – وإن جلّت – دون مرتبته، والأوصاف – وإن كملت – دون وصفه، وكل غلو في حقه تقصير، فيضيق على البليغ النطاق فلا يبلغ إلا قليلا من كثير، لكن المتأخرون رأوا أن مدحه صلى الله تعلى عليه وسلم من أعظم القرب – وإن كان الوصول إلى الكنْه لا يستطاع – لأجل التعلق بجنابه الشريف، والتبرك بخدمة قدره المنيف، فأكثروا من مدحه وتفننوا فيه هـ

وقد قلت:

وَمَـادِحُ الـنبي لـو جهـداً بـذلْ ... لقطـرةٍ مـن بحـره مـا إن وصـلْ
لِـــذا كـــثيرُ الشــعَرا تلفيـــهِ ... مـا إن لـه يُوجَـدُ مـدحٌ فيـهِ
إذ المبالغـــةُ ليســـت تمكـــنُ ... والشعرُ إن منهـا خـلا لا يحسـنُ
والعلـوِي ابـنُ الحـاج إبـراهيم لاحْ ... هـذا بشـرح نظمـه "نـور الأقـاحْ"

وقد ألف شيخ شيوخنا زين بن اجّمد اليدالي – رحمه الله تعلى – كتابا في مطلوبية مدحه صلى الله تعلى عليه وسلم، وفي رد شبهة من منع التبرك، والتوسل بالصالحين؛ سماه: "نهر العسل المصفّى في مدح النبي المصطفى" أفاد فيه وأجاد.

ولله در القائل:

حديثُـهُ أو حـديثٌ عنـه يُطـربني ... هـذا إذا غـاب أو هـذا إذا حضـرَا
كلاهمـا حسـنٌ عنـدي أُسـرُّ بـه ... لكـنّ أحلاهمـا مـا وافـق النَّظـرا

وبالله تعلى التوفيق.

الثانية: قال العماد ابن كثير: إن الله تعلى لم يبعث نبيا؛ إلا أخذ عليه العهد في محمد صلى الله تعلى عليه وسلم؛ إن بعث وهو حي؛ ليومنن به ولينصرنه، ويأخذ العهد بذلك، وأخذ السبكي من الآية أنه – على تقدير مجيئه في زمانهم – مرسل إليهم؛ فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق؛ من ءادم.. إلى يوم القيامة، وتكون الأنبياء والأمم كلهم: من أمته؛ فقوله «وَبُعِثْتُ إِلَى النّاسِ كَافّةً»؛ يتناول من قبل زمانه أيضا، وبه يتبين معنى قوله: «كُنْتُ نَبِياً وَءَادَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ»، وكذا حكمة كون الأنبياء تحت لوائه في الآخرة، وصلاته بهم ليلة الإسراء؛ فأول الأشياء – على الإطلاق – النور المحمدي، ثم الماء، ثم العرش، ثم القلم، ولما خلق الله ءادم؛ جعل ذلك النور في ظهره؛ فكان يلمع في جبينه، ولما توفي كان ولده شئث وصيه؛ فوصى ولده بما وصاه به أبوه: أن لا يوضع هذا النور إلا في

المطهرات من النساء، ولم يزل العمل بهذه الوصية.. إلى أن وصل ذلك النور إلى عبد الله، مطهرا من سفاح الجاهلية، كما أخبر رسول الله صلى الله تعلى عليه وسلم عن ذلك في عدة أحاديث، ثم زوج عبد المطلب ابنه عبد الله بآمنة بنت وهب، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسبا، وموضعا، فدخل بها، وحملت بمحمد صلى الله تعلى عليه وسلم، فظهر في حمله ومولده عجائب تدل لما يؤول إليه أمرُ ظهوره، ورسالته.

وقد صح أن أمه صلى الله تعلى عليه وسلم رأت حين وضعته نورا أضاء له قصور الشام، وولد مختونا في قول، عام الفيل وحكي الاتفاق عليه، والمشهور أنه بعده بخمسين يوما، وقِيل بأربعين، وقيل بعشر سنين، وقيل غير ذلك. انظر شرح الإحياء.

وفي جسوس — بعد أن نقل عن الهيتمي أنه في حديثٍ صحّحه غير واحد من الحفّاظ، ولم يلتفتوا لمن طعن فيه -: أن الله تعلى أحيا أبويه عليه السلام له، فآمنا به خصوصية لهما، وكرامة له عليه السلام، وفائدة إحيائهما — مع أن أهل الفترة لا يعذبون -: إتحافهما بكمالٍ لم يحصل لأهل الفترة؛ لأن غاية أمرهم: أنهم ألحقوا بالمسلمين في مجرد السلامة من العقاب، وأما مراتب الثواب العلية؛ فهم بمعزل عنها؛ فألحقا بمرتبة أهل الإيمان زيادة في شرفهما، في حصول تلك المراتب لهما، وبعد أن نقل أيضا عن السيوطي أن إسناد هذا الحديث ضعيف، وعن العسقلاني أيضا أن حديث إحياء أمه ءامنةَ كذب سنده ومتنه، وعن الفاسي أيضا في شرح الدلائل أن الصواب ضعفه، لا وضعه ما نصه: قلت: وعلى تسليم أنه حديث ضعيف؛ فضعفه إنما هو من جهة الصناعة الحديثية.

وأما نجاة أبويه صلى الله تعلى عليه وسلم، وإيمانهما - بل وحصول أعظم منازل أهل الإيمان لهما - فهو اعتقادنا؛ يشهد بذلك جلالة قدره، وعلو منصبه عند ربه، فإذا كان الواحد من ذريته - بل الواحد من صحابته، بل الواحد من أمته صلى الله تعلى عليه وسلم - يناله من فضل الله ورحمته بواسطته صلى الله تعلى عليه وسلم وبركته: ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ

سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر - حدِّثْ عن البحر ولا حرج - فكيف لا ينال أبواه صلى الله تعلى عليه وسلم مِن ذلك الحظَّ الأوفرَ، والنصيب الأكبر؟ كيف وقد منّ الله تعلى عليهما بمزيّة خروجه من بينهما؛ رحمة للعالمين؟

وقد قال السيوطي في تاليفه الثالث: الحديث الضعيف يعمل به في الفضائل والمناقب، وهذه مَنقبة، وقد أيّد بعضهم هذا الحديث بالقاعدة المقررة، التي اتفق عليها الأيمة: أنه ما أوتي نبي معجزة أو خصِّيصة؛ إلا وأوتي النبي صلى الله تعلى عليه وسلم مثلها، وقد أحيا الله لعيسى الموتى من قبورهم؛ فلا بد أن يكون لنبينا مثل ذلك، ولم يرد من هذا النوع إلا هذه القصة، ثم قال: ولا شك أن من الطرق التي يعتضد بها الحديث الضعيف: موافقة القواعد المقررة هـ

ونقل في كتابه "الأرج": أن القاضي أبا بكر بن العربي سئل عن رجل قال: إن أبوي النبي صلى الله تعلى عليه وسلم في النار؛ فأجاب بأنه ملعون؛ لأن الله تعلى قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ الآية. قال ولا أذى أعظم من أن يقال عن أبويه أنهما في النار هـ

وقد قلت أنا في نظم "عقود اللجين في نجاة الأبوين":

وقال حاوِي قصبِ السباقِ	على المواهبِ ابنُ عبد الباقي
مَن سِيل عن والدي العدناني	يقول: في الجنة ناجيان
إذ أُحيِيا فآمنا بِذا جزمْ	ألقرطبي وناصر الدين العلمْ
والحافظُ الحبرُ السهيلي وإنْ	كان حديثُ ذاك ضعْفُه يَعِنْ
فهُوَ في منقبةٍ فاحتُملا	إذ هي بالضعيف فيها عُملا
أو قبل بعثةٍ بفترةٍ هما	ماتا فلا تعذيبَ، الأُبِّي جَزما
بذاك أو كانا بلا محيدِ	على الحنيفيةِ والتوحيدِ
لم يتقدّمْ لهما شركٌ كما	إلى السنوسِي والتلمساني انتمَى
قال ابنُ عبد الباقِ لم أجد خلافْ	هذا سوى ما لابن دحْية يضافْ
وما ابنُ دحيةَ إليه عَدلا	فالقرطبى برده تكفّلا

وبالله تعلى التوفيق.

الثالثة: في المناوي عن الحافظ ابن حجر: أن الأحاديث التي فيها صفته صلى الله تعلى عليه وسلم: داخلةٌ في قسم المرفوع اتفاقا، مع أنها ليست قولا له، ولا فعلا، ولا تقريرا، وفي النسيم عنه أيضا؛ قال أيمتنا الشافعية: من قال إنه صلى الله تعلى عليه وسلم كان أسود، أو غير قرشي، أو توفي أمرد؛ كَفر؛ لأن نعته صلى الله تعلى عليه وسلم بغير صفته: نفيٌ له وتكذيبٌ؛ ومنه يعلم أن كل صفة ثبتت بالتواتر نفيُها (عنه) كفرٌ هـ

المناوي: قال الحافظ أبو نعيم: قد اختلفت ألفاظ الصحابة في نعته وصفاته؛ وذلك لما رُكِّب في الصدور: من جلالته وحلاوته، وعظيم مهابته وطلاوته، ولما جعل في جسده الشريف من النور الذي يتلألأ، ويغلب على بشرته؛ فأعياهم ضبط صفته، ونعت حليته، حتى قال بعضهم: كان مثل الشمس طالعةً، وقال بعضهم: كان يتلألأ تلألؤ القمر ليلة البدر، وقال بعضهم: لم أرَ قبله ولا بعده مثله؛ فلذلك السبب كان اختلافهم في نعت خلقته ولونه هـ

وفي جسوس: قد نص العلماء على أن حقيقة رسول الله صلى الله تعلى عليه وسلم سِرٌّ لطيف من أسرار الحق تعلى، لا يَطلع عليه في هذه الدار نبيٌّ مرسل، ولا ملك مقرب، وإنما أدرك المومنون صورته المحمدية، فالخلق عاجزون عن إدراك جماله، وعقله، وجاهه، وعلومه، وعبوديته، وخوفه، ورجائه، وزهده، وتواضعه، وشفقته، ورحمته، وجوده، وقد قال العلماء رضي الله عنهم: إنه صلى الله تعلى عليه وسلم كنخلة اجتمعت فيها أقوات الخلق؛ أصلها في الأرض، وفرعها في السماء، وهي مثمرة من أرضها إلى منتهى فرعها، وكل واحد من الخلق في أخذ قوتهم منها على حسب قوته، ونهاية طاقته، ورأسُها ممتنع عن الجميع؛ لامتناع وصول البشر إلى السماء، وقد قال صلى الله تعلى عليه وسلم: «لاَ يَعْرِفُنِي حَقِيقَةً غَيْرُ رَبِّي» وفي ذلك رحمة بالعباد هـ انظر بقيته.

وفي المواهب: في الأثر أن خالد بن الوليد خرج في سرية من السرايا، فنَزل ببعض الأحياء، فقال سيد ذلك الحي: صفْ لنا محمدا، فقال: أما إني

أفضِّل فلا.. فقال الرجل: أجْمل، فقال: الرسول على قدر المرسِل. الزرقاني: أي حالة تليق به، وهو رسول الله، بعثه لتبليغ أحكامه؛ فمِن لازمه أنه بالغ الغاية؛ فكل ما تُصور فيه من كمال: دون ما ثبت له، فإن الملِك إذا بعث رسولا لقضاء ما يريد؛ إنما يرسل من يقدر على ذلك؛ بحيث يكون ذا مرتبة شريفة، وتصرف تام هـ والله الموفق.

الرابعة: في شرح الإحياء وغيره: اعلم أن مِن تمامٍ الإيمان به صلى الله تعلى عليه وسلم: اعتقادَ أنه لم يجتمع في بدنِ ءادمي من المحاسن الظاهرة، الدالة على محاسنه الباطنة: ما اجتمع في بدنه صلى الله تعلى عليه وسلم، وسرُّ ذلك: أن المحاسن الظاهرة ءايات على المحاسن الباطنة، والأخلاق الزكية، ولا أكمل منه صلى الله تعلى عليه وسلم، ولا مُساوٍ له في هذا المدلول؛ فكذلك الدالُّ؛ ومِن ثم نقل القرطبي عن بعضهم: أنه لم يظهر تمام حسنه صلى الله تعلى عليه وسلم؛ وإلا لما أطاقت أعين الصحابة النظر إليه هـ ونحوه في المناوي.

وكذا في شرح ابن سلطان، ثم قال أيضا: وأما الكفار؛ فكانوا كما قال تعلى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وقال بعض الصوفيين: أكثرُ الناس عرف الله عز وجل، وما عرفوا رسول الله صلى الله تعلى عليه وسلم؛ لأن حجاب البشرية غطى أبصارهم هـ

ولله در البُوصِيري حيث قال:

فَهْوَ الذِي تَمَّ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ ... ثُمَّ اصْطَفَاهُ حَبِيباً بَارِئُ النَّسَمِ
مُنَزَّهٌ عَنْ شَرِيكٍ فِي مَحَاسِنِهِ ... فَجَوْهَرُ الْحُسْنِ فِيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمِ

وبالله تعلى التوفيق.

الخامسة: قال جسوس رحمه الله تعلى: ذِكرُ ما ورد من شمائله صلى الله تعلى عليه وسلم، وحسنه الظاهر، والباطن، ومعرفة ذلك: يتعين على كل مؤمن لوجوه ستة.. ثم قال بعد سردها ما نصه: وهذه الوجوه الستة وغيرها تأتي في الأمداح النبوية هـ

فالأول من تلك الوجوه التي سرد: هو أن معرفة صفاته السنية وسيلةٌ إلى امتلاء القلب بتعظيمه، وتعظيمُه وسيلة إلى تعظيم شريعته؛ لأن حرمة الكلام على قدر حرمة المتلكم به، وتعظيمها واحترامها وسيلةٌ إلى العمل بها، والوقوف عند حدودها، وذلك وسيلةٌ إلى الفوز برضوان الله تعلى، الذي هو غاية رغبة الراغب.

الثاني: أن معرفتها تتضمن معرفة حسنه وإحسانه صلى الله تعلى عليه وسلم، وذلك وسيلة إلى محبته؛ لأن أسباب المحبة مدارُها على الحسن والإحسان، فإن النفوس مجبولةٌ على حب الحسن، كما أنها مجبولة على حب المحسن إليها، ولا حسن يماثل حسنه صلى الله تعلى عليه وسلم، كما لا إحسان يماثل إحسانه صلى الله تعلى عليه وسلم إلينا؛ إذ كل خير - قلّ أو جلّ - فمنه حصل، ومحبته صلى الله تعلى عليه وسلم نعمةٌ عظيمة؛ لأنها موجبة لمجاورته؛ لحديث: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» و«الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» وقد قال: «مَا اخْتَلَطَ حُبِّي بِقَلْبِ أَحَدٍ فَأَحَبَّنِي إِلاَّ حَرَّمَ اللهُ جَسَدَهُ عَلَى النَّارِ».

الثالث: أن السعي في معرفتها: خدمةٌ لجنابه صلى الله تعلى عليه وسلم، وثناءٌ عليه، وتعرضٌ لنفحات فضل الممدوح، واستمطارٌ لسحائب إحسانه، وفي ذلك تعرضٌ للرحمة الإلهية؛ لأنه إذا كانت رحمته تعلى تتنَزل عند ذكر الصالحين؛ فما ظنك بسيدهم، وسندهم، وممدهم، صلى الله تعلى عليه وسلم؟

وبالجملة؛ فأدنى انتساب إليه صلى الله تعلى عليه وسلم يحصل غاية النفع والشرف؛ إذ ليس في الخلق أكرم منه على الله عز وجل، ولم يخلق جاها أعظم من جاهه صلى الله تعلى عليه وسلم؛ فيحصل لخادمه من العز والجاه: بحسب ما له صلى الله تعلى عليه وسلم من العز والشرف؛ فمن خدّمه على الصدق والمحبة؛ دانت له الجبابرة، وأكرمه جميع المؤمنين، كما ترى ذلك فيمن كان مقربا عند ملوك الدنيا، وكما أن غلام الوالي لا

يُتعرض له إكراما للوالي؛ فكذلك خدّام النبي صلى الله تعلى عليه وسلم: لا تتعرض لهم الزبانية يوم القيامة؛ إكراما له صلى الله تعلى عليه وسلم.

ولابن زكْري:

وإذا ما الجنابُ كان عظيما مُـدَّ منه لخادميه لـواءُ.

وتذكَّرْ حكاية الإسرائيلي الذي وهبه الله تعلى ذنوب مائتيْ سنة؛ لتقبيله اسمه صلى الله تعلى عليه وسلم، ووضعه على عينيه.

الرابع: أن معرفة صفاته مُعينة على شهودِ ذاكرِه لِذاته صلى الله تعلى عليه وسلم، وفي رؤيته صلى الله تعلى عليه وسلم - يقظة ونوما - فوائدُ عظيمةٌ، ومزايا فخيمةٌ، وانظر إلى قوله صلى الله تعلى عليه وسلم: «إن لله عبادا من نظر في وجه أحدهم سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا» وقوله: «هُمُ الْقَوْمُ لاَ يَشْقَى جَلِيسُهُمْ»، مع أنهم ما نالوا ذلك إلا بنوره المشرق عليهم، ومدده الساري فيهم..

وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ غَرْفاً مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفاً مِنَ الدِّيَمِ

الخامس: أن في ذكرها وسماعها: تلذذا وتنعما بحبيب القلوب، وقرة العيون صلى الله تعلى عليه وسلم، وهو ضرب من الوصال به صلى الله تعلى عليه وسلم؛ لما فيه من إمتاع حاسّة السمع، واللسان بأوصاف المحبوب، الذي هو وسيلة إلى حضوره بالقلب، فإذا فات النظر إليه بالبصر؛ لم يفت التمتع به بالسمع، والنظر إليه بالبصيرة، كما قال بعضهم:

يا واردا من أهيل الحي يخبرني عن جيرتي شنِّف الأسماع بالخبر
نشدتك الله يا راوي حديثهم حدِّث فقد ناب سمعي اليوم عن بصري

ويرحم الله سيدي أبا مدين إذ يقول:

ونحيا بذكراكمْ إذا لم نراكمُ ألا إنّ تذكار الأحبة ينعشُنا
فلولا معانيكمْ تراها قلوبُنا إذا نحنُ أيقاظٌ وفي النوم إن غبنا
لَمِتنا أسًى من بعدكم وصبابةً ولكنّ في المعنى معانيَكم معْنا
يحركُنا ذكرُ الأحاديث عنكمُ ولولا هواكمْ في الحشَى ما تحركْنا

السادس: أن ذكر محاسنه صلى الله تعلى عليه وسلم: يحرك ما في القلوب من الحب الساكن، والشوق الكامن، ويحصل من انشراح الصدور، وتفريج الكروب، ما يناسب إجلاء تلك المحاسن، وقد يغيب المحب عند ذكر أوصاف المحبوب صلى الله تعلى عليه وسلم، وبالغيبة فيه صلى الله تعلى عليه وسلم يتضاعف ويتجدد من الإقبال على الخير، والتحلي بأنواع البر أمرٌ غير متعارف، ولاسيما إن كان القارئ حسن الصوت، وكانت قراءته على وجه يثير الخشوع، ويرقق القلوب، كما هو المطلوب عند قراءة القرءان، ويرحم الله الشيخ عبد الرحيم البُرعي إذ قال:

وتأخذ قلبي نشوةٌ عند ذكركم كما ارتاح صبٌّ خامرتْه خمورُ
أصومُ عن الأغيار قطعا وذكركمْ سحورٌ لصومي في الهوى وفطورُ
ومدح رسول الله أصلُ سعادتي أفوزُ به يومَ السماءُ تمورُ
نبي تقي أريحي مهذب بشير لكل العالمين نذير
إذا ذُكر ارتاحت قلوبٌ لذكره وطابت نفوسٌ وانشرحن صدور

وبالله تعلى التوفيق.

الفائدة السادسة: قال في الشفا: أما الصورة وجمالها، وتناسب أعضائه في حسنها؛ فقد جاءت الآثار الصحيحة، والمشهورة الكثيرة بذلك، من حديث علي، وأنس بن مالك، وأبي هريرة، والبراء بن عازب، وعائشة أم المؤمنين، وابن أبي هالة، وأبي جحيفة، وجابر بن سمرة، وأم معبد، وابن عباس، ومعرض بن معيقيب، وأبي الطفيل، والعداء بن خالد، وخريم بن فاتك، وحكيم بن حزام.. وغيرهم رضي الله تعلى عنهم؛ من أنه صلى الله تعلى عليه وسلم: كان أزهر اللون، أدعج، أنجل، أشكل، أهدب الأشفار، أبلج،

أزج، أقنى، أفلج، مدوَّر الوجه، واسع الجبين، كث اللحية تملأ صدره، سواء البطن والصدر، واسع الصدر، عظيم المنكبين، ضخم العظام، عبل العضدين، والذراعين، والأسافل، رحب الكفين، والقدمين، سائل الأطراف، أنور المتجرد، دقيق المسربة، ربعة القد، ليس بالطويل البائن، ولا القصير المتردد، ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد ينسب إلى الطول إلا طاله صلى الله تعلى عليه وسلم، رجل الشعر، إذا افتر ضاحكا افتر عن مثل سنا البرق، وعن مثل حب الغمام، إذا تكلم رىء كالنور يخرج من بين ثناياه، أحسن الناس عنقا، ليس بمطهَّم، ولا مكلثم، متماسك البدن، ضَرْب اللحم.

قال البراء: ما رأيت من ذي لمة في حلة حمراء أحسن من رسول الله صلى الله تعلى عليه وسلم.

وقال أبو هريرة رضي الله تعلى عنه: ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله تعلى عليه وسلم؛ كأن الشمس تجري في وجهه، وإذا ضحك يتلألأ في الجُدُر.

وقال جابر بن سمرة، وقال له رجل كان وجهه صلى الله تعلى عليه وسلم مثل السيف؛ فقال: لا، بل مثل الشمس والقمر، وكان مستديرا.

وقالت أم معبد في بعض ما وصفته به: أجمل الناس من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب.

وفي حديث ابن أبي هالة: يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر.

وقال علي رضي الله تعلى عنه في ءاخر وصفه له: من رءاه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله تعلى عليه وسلم.

والأحاديث في بسط صفته مشهورةٌ كثيرة؛ فلا نطول بسرْدها، وقد اختصرنا في وصفه نُكَتَ ما جاء فيها، وجملة مما فيه الكفاية في القصد إلى المطلوب. انتهى من الشفا.

ولنرجع الآن إلى شرح القصيدة؛ ففيها جل ما ذكره.

قال الشيخ الأجل سيدي أحمد زروق رحمه الله تعلى:

لَقَدْ كَانَ خَيْرُ الْخَلْقِ أَبْهَرَ طَلْعَةً مِنَ الْبَدْرِ بَلْ مِنْ شَمْسِهِ هُوَ أَلْهَبُ

(لَقَدْ كَانَ) أي لم يزل **(خَيْرُ الْخَلْقِ)** سيدنا محمد صلى الله تعلى عليه وسلم، وأفضليته على جميع الخلق: مما يجب اعتقاده، وكادت تكون مما علم من الدين بالضرورة، كما قال السنوسي. **(أَبْهَرَ)** أي أنور وأحسن؛ بهر القمر - كمنع -: غلب ضوءه ضوء النجوم. **(طَلْعَةً)**: رؤية أو وجها **(مِنَ الْبَدْرِ)**: القمر ليلة تمامه، والبدر: من أسمائه صلى الله تعلى عليه وسلم؛ لتمام كماله، وعلوِّ شرفه؛ فلهذا أنشدوا لما قدم المدينة:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

(بَلْ مِنْ شَمْسِهِ) لعله أضافها للبدر؛ لأن ضوءه مستفاد منها **(هُوَ أَلْهَبُ)** أي أشدُّ توقُّدا وجمالا، والشمسُ يشبه بها غالبا: في الإشراق، والضياء، والرفعة، والقمرُ يشبه به: في الملاحة والحسن.

ولعائشة رضي الله تعلى عنها تمدحه صلى الله تعلى عليه وسلم:

وأجمل منك لم تر قطُّ عيني وأحسن منك لم تلدِ النساءُ
خلقت مُبرءا من كل عيبٍ كأنك قد خُلقت كما تشاءُ

ومما يُنسب لها أيضا:

فلو سمعوا في مصر أوصاف خده لما بذلوا في سوم يوسف من نقد
وصحب زليخا لو رأين جبينه لآثرن بالقطع الفؤاد على الأيدي.

ويرحم الله القائل في مدحه صلى الله تعلى عليه وسلم :

بَهَرْتَ بالحسن أهلَ الحسن فانبهرُوا　　حتى كأنهمُ في الحـي مـا ظهـروا
وصـرتَ قُطـبَ جمـال فاسـتمدّ سَـنا　　من وجـهك النيران الشمسُ والقمرُ

وما أحسن قول حسان رضي الله عنه في وصفه صلى الله تعلى عليه وسلم :

لمـا نظـرتُ إلى أنـواره سـطعتْ　　وضعتُ من خيفتي كَفي على بصرِي
خوفاً على بصري من حُسن صُورته　　فلسـتُ أنظـرُه إلا علـى قَـدرِ
الاَنـوار مـن نـوره في نـوره غَرقـتْ　　والوجـهُ مثـلُ طُلـوع الشـمس والقمـرِ
روحٌ مـن النـور في جسـم مـن القمـر　　كحلّـة نسـجت في الأنجـم الزهُـرِ

ثم إن تشبيه بعض صفاته صلى الله تعلى عليه وسلم بنحو القمر، والشمس؛ إنما جرى على عادة العرب، والشعراء، أو على سبيل التقريب، والتمثيل؛ وإلا فلا شيء يعادل شيئا من أوصافه صلى الله تعلى عليه وسلم؛ إذ هي أعلى وأجل من كل مخلوق.

جسوس: حسنُ كل حَسن في الوجود؛ إنما هو مستمَدٌّ ومقتبسٌ من حسنه ونوره صلى الله تعلى عليه وسلم؛ فحُسنه صلى الله عليه وسلم هو المشهود في كل حسن، ونوره صلى الله تعلى عليه وسلم هو المشهود في جميع الأنوار: من شمس، وقمر، ونجوم، وغيرها، فصار كل منها مظهرا، ومَجْلىً لنوره صلى الله تعلى عليه وسلم؛ فعلى المحب أن يشهد جماله صلى الله تعلى عليه وسلم في كل جميل عند رؤيته، فيذكره معظما بقلبه، ويتبع ذلك بذكر لسانه، وقد كان بعض المشايخ إذا رأى شيئا حسنا، أو وقع في قلبه معنى حسن؛ بادر إلى قوله: "الصلاة والسلام عليك يا رسول الله"، وهذا المعني في القياس، على ما اشتهر بين الناس، عند رؤية الورد، والزهر ونحوها، وشم ذلك؛ فيثبت له ثواب الذكر اللساني، والقلبي، ويفوز باستعمال تلك اللحظة

في خدمته صلى الله تعلى عليه وسلم، بل وشهوده انتهى منه باختصار.

(جَمِيلُ الْمُحَيَّا) أي الوجه، فقد كان أحسن الناس وجها حتى من يوسف.

السيوطي: من خصائصه أنه أوتي كل الحسن، ولم يؤت يوسف إلا شطره، وفي حديث ابن أبي هالة «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخْمًا مُفَخَّمًا، يَتَلَأْلَأُ وَجْهُهُ تَلَأْلُؤَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ».

جسوس: أشار بهذا إلى أنه صلى الله تعلى عليه وسلم: كان تشرق من طلعته الشريفة الأنوار، وتتلألأُ منه الأضواء في الليل والنهار، ويرحم الله القائل:

لم لا يضيء بك الوجودُ وليلُه   فيه صباحٌ من جَمالك مسفرُ
فبشمس حسنك كل يوم مشرقٌ   وببدر وجهك كلُّ ليلٍ مقمرُ

وإنما خص حسان رضي الله تعلى عنه ذلك بالليل في قوله:

متى يبدُ في الداجي البهيمِ جبينه   يلحْ مثل مصباحٍ الدجى المتوقِّدِ
فمن كان أو من ذا يكون كأحمدٍ   نظاماً لحقٍ أو نكالاً لِمُلحدِ

لأن ظهور النور في الليل أتم، وأشد، وأقوى، وإنما خص الجبين؛ لأن النور أول ما يظهر من الأماكن المرتفعة، ثم ينتشر، وقد دخل صلى الله تعلى عليه وسلم يوما على عائشة رضي الله تعلى عنها، وأساريره تبرق – أي يلمع منها شبه البرق – فقالت: يا رسول الله أنت أحق بقول أبي كبير الهذلي في ربيبه تأبط شرا:

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه   برقت كبرق العارض المتهلل

وهذا أصلٌ – كما قال القاضي أبو بكر بن العربي – في قلب المعنى الحسن، وأخذه من غير حقه، ووضعه في حقه انتهى باختصار.

(أَزْهَرُ اللَّوْنِ): صفة مشبهة أي أبيضه في حسن، وملاحة، يعلوه إشراق، ولمعان؛ زهر: كفرح وكرم.

(أَبْلَجٌ) أي كان بين حاجبيه بلجة أي فرجة بيضاء دقيقة، لا تستبين إلا لمتأمل؛ فهو غير أقرن في الواقع؛ وإن كان أقرن بحسب الظاهر عند من لم يتأمله؛ لأنهما سبغا، حتى كادا يلتقيان، قال الأصمعي: كانت العرب تكره القرن، وتستحب البلج، والبلج: هو أن ينقطع الحاجبان؛ فيكون ما بينهما نَقِيّاً.

وقد قلت:

كانَ أزجَّ الحاجبين مَن سَمَا	أبلجَ أي نقي مَا بينَهما
مِن شعر لم يتصف بالقَرَن	أي اتصال الحاجبين ذَا السنِي
لكنْ أتى في وصْف أم مَعْبدِ	له، وبَين ذين وفِّق الندِي
فَهو في الواقع أَبلج فمَنْ	لم يتأمل أو نئا له القَرنْ
يبدو، وذو تأمُّل إذْ ينظرُ	بالقرب فاصلاً دقيقاً يُبصرُ
فنَزِّهنْ طرفَك في خمائلِ	روضةِ جَسوسَ على الشمائلِ

(بَهِيٌّ): البهاء – بالفتح والمد –: الحسن؛ فِعله كسرُوَ، ورضي، ودعا، وسعى، وفي الأساس: شيء بهي: إذا ملأ العين حسنه.

(بَهِيجُ الْوَجْهِ) أي حسنه؛ بهج ككرم، وابتهج بالشيء: فرح به؛ قال في الإحياء: كان صلى الله تعلى عليه وسلم أحسن الناس وجها، وأنورهم، لم يصفْه واصفٌ إلا شبهه بالقمر ليلة البدر.

وإنما شبه الوصّاف تلألؤ الوجه بتلألؤ القمر – دون الشمس –؛ لأنه ظهر في عالم مُظلمٍ بظلام الكفر، ونور القمر أنفع من نورها؛ فنور وجهه أنفع من نور الشمس؛ وهذا – كما ترى – أحسن من الجواب بأن نور القمر يُتمكّن من النظر إليه، ويؤنس من شاهده، من غير أذىً يتولد عنه؛ بخلاف الشمس؛ لأنها تُعشي البصر، وتؤذي، على أنه ورد تشبيهه بالشمس كما في المناوي هـ وتعشي: بإعجام العين وإهمالها.

(أَبْيَضُ مُشْرَبُ) – بصيغة اسم المفعول –: من الإشراب؛ وهو خلط لون بلون، كأنه يُسقي به؛ يعني أنه صلى الله تعلى عليه وسلم أشرب بياضه حمرة؛ وذلك أحسن من البياض الشديد، الذي لا يخالطه لون ءاخر، والبياض المشرب بحمرة: هو أحسن الألوان؛ لدلالته على قوة المزاج، واعتداله، وهذا معنى "أزهر"، ويقال له أسمر؛ نظرا لميله للحمرة، ومن أطلق عليه "ءادم"؛ عنى هذا، انظر النسيم.

وفيه أيضا: فإن قلت لونه صلى الله تعلى عليه وسلم أشرف الألوان، وكذلك أهل الجنة؛ فلِمَ جاء في صفتهم أن لونهم بياض تشوبه صفرة، كما فسر به قوله تعلى ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾؛ قلت: البياض المشرب بالحمرة: يدل على غلبة الدم، المورث لقوة المزاج، واعتداله، الناشئ عن الغذاء في الدنيا، وأما غذاء الآخرة؛ فله شأن ءاخر، والصفرة فيها بريق ولمعان يناسب النساء، دون الرجال؛ ولذا مُدحن به في أشعار العرب، مع أنه ناشئٌ عن ترك الحركة، وكثرة النوم والترفه انتهى منه. وفي شرح الإحياء – بعد كلام –: وأما الشوب بالصفرة التي تورث البياض صفاء وصقالة؛ فلا ينشأ عادة من غذاء من أغذية هذه الدار؛ فناسب أن يختص الشوب به في تلك الدار؛ فظهر أن الشوب في كل من الدارين: بما يناسبها، فإن قلت: من عادة العرب مدح النساء بالبياض المشرب بصفرة – كما وقع في لامية امرئ القيس – وهذا يدل على أنه فاضل في ألوان أهل الدنيا أيضا؛ قلتُ: لا نزاع في أنه

فاضل، وإنما النِّزاع في أنه أفضل الألوان في هذه الدار، وليس كذلك، بل أفضلها المشرب بحمرة؛ لما تقرر أن لونه صلى الله تعلى عليه وسلم أفضل الألوان.

(أَشَمُّ) : الشمم: ارتفاع قصبة الأنف مع استواء أعلاه، وإشراف الأرنبة قليلا؛ وهو من صفات الجمال والمدح، وعلامة السؤدد في الرجال، وهذا يعارضه ما اشتهر من أنه صلى الله تعلى عليه وسلم "كان أقنى"؛ والقنى: احديداب قصبة الأنف مع نزول الأرنبة أي رأس الأنف مما يلي الفم، وجمع بينهما بأن القنوَ كان خفيفا؛ فإن زيادته غير ممدوحة، كما مر في البَلج، وسيأتي هذا إن شاء الله.

(أَزَجُّ الْحَاجِبَيْنِ) أي مقوسهما مع كثرة شعرهما، وطول في طرفه وامتداده، أو دقتهما مع طول. والحاجبان: هما العظمان فوق العينين بلحمهما وشعرهما، تثنية حاجب؛ من الحجب؛ وهو المنع؛ لِمنعه الشمس عن العين. والأزج من الزجَج -محركة - وهو دقة شعر الحاجبين، مع طوله واستوائه، والزجج: ما كان خِلقة، والتزجيج: ما صنع، كما قال:

وزججن الحواجب والعيونا.

أي صنعن ذلك.

(مُفَلَّجٌ): بفتح اللام مشددة أي منفلج الأسنان، ليس متراصها؛ ففي حديث هند: "مفلج الأسنان"، وفي حديث علي رضي الله تعلى عنه: "أفلج الثنايا"، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: "أفلج الثنيتين" أي بعيد ما بين الثنايا والرباعيات، والفلَج والفرَق: فرجة بين الثنيتين؛ وهي صفة جميلة، لكن مع القلة، وإلى حديث ابن عباس هذا ترجع الروايات الأخَر هـ جسوس: قال بعضهم: المراد بالثنيتين: العليبان، دون السفليين؛ لأن المدح خاص بفلج العلييْن.

قال في النسيم: والفلج ممدوحٌ؛ لأنه يطيب رائحة الفم والأسنان؛ لعدم بقاء المأكول بينهما، مع المعاونة على خروج الحروف من المخارج سهلةً فصيحة، ومن الْمُلح فيه قول ابن نباتة:

أفدي الذي جبينُه وشعره طرة صبح تحت أذيال الدجى
ما لي به معْ قرْب دار ملتقىً فهل رأيت ثغره المفلّجا

(كَحِيلُ جُفُونٍ): مواضع الكحل أي يعلو جفون عينيه سواد مثل الكحل من غير اكتحال؛ فعيل بمعنى مفعول؛ كحل - كفرح - فهو أكحل، وكحيل، ومكحول، وفي الجامع الصغير: «أَنَّهُ كَانَ أَكْحَلَ الْعَيْنَيْنِ» المناوي: أي شديد سواد أجفانهما، وعن ابن عباس وغيره أنه صلى الله تعلى عليه وسلم «كان الصبيان يصبحون شعثا رمْصا ويصبح رسول الله صلى الله تعلى عليه وسلم دهينا كحيلا».

(أَدْعَجُ الْعَيْنِ) أي العينين؛ فهو من وقوع المفرد بدل المثنى؛ يعني أنه شديد سواد الحدقة مع سعة العين؛ ففي الصحاح: الدعج: شدة سواد العين مع سعتها، وقيل شدة بياض البياض وسواد السواد.

(أَهْدَبُ) أي شعَر أجفانه كثير مستطيل؛ فهو أهدب الأشفار؛ جمع شفر - بضم الشين وتفتح -: حرف الجفن الذي ينبت عليه الهُدب - بضم الهاء والدال، ويجوز تسكينها -؛ وهو الشعَر النابت على الجفن، الذي هو غطاء العين الأعلى والأسفل، وطول شعر الأشفار مع الانعطاف؛ هو المسمى بـ"الوطف" - بفتحتين - الذي وصفته به أمُّ معبد.

وإنما خُلقتْ هذه الأجفانُ وأهدابها؛ لتقِي ناظر العين الأذى؛ فهي تمسحه في انطباقها، وانفتاحها، وتذب عنه بأهدابها، وفي الجفن، وطول أهدابه:

زينةٌ ونفعٌ وحسنٌ كما في النسيم.

(مُدَوَّرُ وَجْهٍ) - بصيغة اسم المفعول - أي في وجهه تدوير قليل مع استطالة قليلة؛ فهو بين الاستدارة والأسالة، وذلك أحلى وأحسن عند العرب وغيرهم، وقد نقل أن الاستدارة المفرطة دالة على الجهل، وما ورد من أنه "مدور الوجه كالبدر": محمول على الضياء والحسن، وفي حديث علي: «وَلَمْ يَكُنْ بِالْمُطَهَّمِ وَلاَ بِالْمُكَلْثَمِ» بلفظ اسم المفعول فيهما؛ فالمطهم: قيل الفاحش السمن، وقيل: المنتفخ الوجه الذي فيه جهامة أي عبوس من السمن، وقيل النحيف الجسم؛ فهو من الأضداد، والمكلثم: قيل القصير الحنك الرابي الجبهة، المستدير مع كثرة اللحم.

(أَنْوَرُ) بالتنوين ضرورة، بمعنى نير، صفةٌ مشبهةٌ نَصَبَ (مُتَجَرَّداً) على التمييز؛ والمتجرد - بفتح الراء المشددة وكسرها - أي مشرق العضو الذي هو: موضع التجرد عن الثوب - على الفتح - فالعرب تقول: فلان حسن الْمُجَرَّد والْمُتَجَرَّد والْجُرْدة والعُرْية والْمُعَرّى، والكل بمعنى، أو مشرق العضو العاري عن الثوب - على الكسر - فمتجرَّدُه ﷺ أنور من متجرد غيره.

ثم إِن المراد: جميع البدن، لا ما يُستر غالبا، ويجرّد أحيانا، فقد كان ﷺ مشرق البدن.

المناوي: كانت ذاته الشريفة كلها نورا - ظاهرا وباطنا - حتى أنه كان يَمنح(1) لمن استحقه من أصحابه، وذكر قصتي الطفيل بن عمرو، وقتادة بن النعمان، فانظرهما فيه، ثم قال: ومسح وجه رجل فما زال على وجهه نور، ومسح وجه قتادة بن ملحان؛ فكان لوجهه بريق، حتى كان ينظر في وجهه، كما ينظر في المرآة.. إلى غير ذلك.

---

1) أي يعطي عليه السلام النورَ.

______

(**كَأَنَّ الْمَهَى**) جمع مهاة: الشمس؛ فقد تُجمع، كأنهم جعلوا كل ناحية منها شمسا، كما قالوا في مفرق: مفارق؛ قال

حمي الحديد عليهمُ فكأنه ومضان برق أو شعاع شموس.

قال ابن بونا رحمه الله تعلى:

وَقَدَّرُوا تَسْمِيَةَ الْجُزْءِ بِكُلْ فَالْجَمْعُ فِي مَكَانِ غَيْرِهِ جُعِلْ.

(**فِي وَجْهِهِ لَيْسَ تَغْرُبُ**) أي تغيب، بل هي طالعة فيه أبدا، ولم يقل "ليست" على حد قوله:

فإما تريني ولي لمة فإن الحوادث أودى بها.

فهو ضرورة، وقد أجازه ابن كيسان في النثر، يعني أن نور جماله صلى الله تعلى عليه وسلم لا يغيب طرفة عين؛ فمن رأى وجهه الشريف خيِّل إليه أن الشمس تجري فيه؛ فهو يتوهج كتوهج الشمس؛ لحسنه وصفائه، وبهاء ضيائه.

وعن ابن مسعود؛ قال: قال رسول الله صلى الله تعلى عليه وسلم «هبط علي جبريل فقال يا محمد إن الله تعلى يقول كسوت حسن يوسف من نور الكرسي وكسوت نور وجهك من نور عرشي».

وعن أبي هريرة قال: «ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله تعلى عليه وسلم، كأن الشمس تجري في وجهه».

قال الطيْبي: شبّه جريان الشمس في فلكها: بجريان الحسن في وجهه صلى الله تعلى عليه وسلم.

وروى البيهقي من طريق أبي عبيدة؛ قال قلت للرُّبيع بنت معوذ: صِفِي لِي

رسول الله صلى الله تعلى عليه وسلم، قالت: لو رأيته لقلت الشمس طالعة، وفي رواية يا بنيٍّ لو رأيته لرأيت الشمس طالعة.

(أسِيلُ خُدُودٍ) جمع خد؛ ففيه وضع الجمع موضع التثنية، يعني أن خديه الشريفين كانا مسترسلين، ليس في وجنتيه ارتفاع، ولا نتوء؛ قال في النهاية: الأسالة في الخد: هي الاستطالة، وأن لا يكون مرتفع الوجنة هـ أي عاليها، وهي هنا: مع تدوير قليل؛ جمعا بين الأحاديث؛ ولذا جمع الشيخ رضي الله تعلى عنه بين قوله "مدور وجه" وبين قوله "أسيل خدود" وفي رواية الترمذي «سَهْلُ الْخَدَّيْنِ»؛ أراد أن خديه أسيلان، قليلاَ اللحم، رقيقًا الجلد.

(أَنْجَلُ) نجل – كفرح – نجلا – بفتحتين – فهو أنجل: واسع العينين حسنهما. وكان ﷺ أيضا: أشكل أي يخالط بياض عينيه حمرة؛ فالشُّكْلَة: حمرة في بياض العين، وهو محمود محبوب، والشُّهْلَة بالهاء: حمرة في سوادها، ولم ترد في وصفه عليه السلام.

(كَثُّ لِحْيَةٍ) أي كثير شعرها، واللحية – بكسر اللام في الأفصح، وتفتح –: الشعَر النابت على الذقن، وهو مُجتمَع اللحيين، وقد وردت هذه العبارة في الأحاديث، ووردت عبارة "كثيف اللحية" و"عظيم اللحية" وفي بعضها "قد ملأت نحره"؛ قال في النسيم بعد كلام:

والحاصل من ذلك أن لحيته صلى الله تعلى عليه وسلم معتدلة طولا وعرضا، غير خفيفة، ثم قال: فإن قلت ورد في الأحاديث «من سعادة المرء خفة لحيته»، وهو ينافي كونها كثة؛ قلت: المراد من ذلك عدم طولها جدا؛ لما ورد في ذمه، وقيل: اعتبروا عقل الرجل في ثلاث: في طول لحيته، ونقش خاتمه، وكنيته.

وقال علي القاري في شرح قول الشفا: "كث اللحية تملأ صدره" ما نصه: أي ما يقابلها، مع قصر فيها، وانبساط؛ إذ كان يأخذ منها ما زاد على القبضة، وربما كان يأخذ من أطرافها أيضا، والحاصل: أنه لم يكن كوسجَ(1)، ولا خفيفَ اللحية، ولا مقصوصها، غير نازلة إلى صدره.. إلى أن قال: عن الحسَن المثنى أنه قال: إذا رأيت رجلا ذا لحية طويلة، ولم يتخذ لحية بين لحيتين؛ كان في عقله شيء، وقيل: ما طالت لحية إنسان قط؛ إلا ونقص من عقله بقدر ما طال منها.

وفي المواهب من حديث الترمذي: «أنه صلى الله تعلى عليه وسلم كان ياخذ من لحيته من عرضها وطولها» هـ

الزرقاني: بالسوية، كما في الرواية؛ لتقرب من التدوير من جميع الجوانب؛ لأن الاعتدال محبوب، والطول المفرط قد يشوه الخلق، ويطلق ألسنة المغتابين؛ ففعل ذلك مندوب، وكان بعض السلف يقبض على لحيته؛ فيأخذ ما تحت القبضة.

جسوس: عظمُ اللحية بلا طول: غيرُ مستحسن عرفا، والطول الزائد – بأن يكون فيه زيادة على القبضة –: غيرُ ممدوح شرعا.

(**طَوِيلُ بَنَانٍ**) الأصابع، وقيل أطرافها، الواحدة: بنانة.

وفي الشمائلً: "سائل الأطراف" و"شائل الأطراف" بالشك من الراوي؛ من أنه بالسين المهملة؛ من السيلان؛ بمعنى ممتدها امتدادا معتدلا، بغير إفراط، ولا تفريط، أو بالمعجمة؛ من شال الميزان؛ إذا ارتفعت إحدى كفتيه

1) هكذا في شرح علي القاري، ولعله: كوسجا، والكوسج – بالفتح ويضم –: الذي لا شعر على عارضيه، أو النقي الخدين من الشعر.

أي مرتفع الأصابع بلا احديداب، ولا تقبض، والمراد بالأطراف: الأصابع، وطولها مما يتمدَّح به العرب، ويروى: كأن أصابعه قضبان فضة أي أغصانها؛ في امتدادها، وصفاء لونها.

وقال علي القاري: "سائل الأطراف" أي تام الأيدي، والأرجل، والأصابع، طويلها.

(وَاسِعُ الصَّدْرِ) أي عريضه، ولفظ الترمذي "عريض الصدر"، وفي حديث البراء «بعيد ما بين المنكبين»، وفي رواية عنه "رحب الصدر"، والمعنى واحد، وذلك علامة النجابة، والقوة، والجلالة، ويعبر أيضا بسعة الصدر: عن الحلم، وتحمل الأمور؛ فهو واسع الصدر حسا ومعنى؛ إذ وسع كل أحد شفقةً وحلما.

(أَشْنَبُ) أي في أسنانه الشريفة صفاءٌ ورونقٌ وحدةٌ؛ الشنب: رونق الأسنان وماؤها، وقيل رقتها وتحزيز فيها، وقيل هو برد وعذوبة فيها، وقيل بياضٌ وبريقٌ وصفاءٌ وتحديدٌ في الأسنان.

وكان عليه السلام من أحسن عباد الله شفتين، وألطفهم ختم فم، وكان أحسن عباد الله عُنُقا؛ لا ينسب إلى الطول، ولا إلى القصر كما في الإحياء.

قال في النسيم: وحسنه باعتداله، وبياضه، وصفاء لونه، ويستحسن في العنق إشرافه، وانتصابه، وطوله، وقد جاء هذا في وصفه عليه السلام. وطول العنق: مما يستحسن ما لم يفرط؛ فإذا أفرط فهو مذموم. انتهى باختصار.

ثم ذكر عن السهيلي أنه قال: إن العنق والجيد: بمعنى؛ إلا أن الجيد يستعمل في المدح، والعنق بخلافه؛ فتقول: صفعتُ عنقه، لا جيده، ولما ورد عليه ﴿في جيدها حبل من مسد﴾ قال: إنه تهكم وتمليح؛ بجعل الحبل كالعقد لها، وفيه نظر؛ لأن الاستعمال بخلافه كثيرا كما هنا، وكقوله:

جَلِيلُ الْمُشَاشِ بَادِنٌ مُتَمَاسِكٌ ضَلِيعُ فَمٍ ....

وَفِي عُنُقِ الْحَسْنَاءِ يُسْتَحْسَنُ الْعِقْدُ.

(جَلِيلُ) أي عظيم **(الْمُشَاش)**؛ جمع مشاشة – بالضم والتخفيف –: رؤوس العظام، مثل المناكب والمرافق والركبتين، أو العظام اللينة التي يمكن مضغها، وكان ﷺ جليل الكتد – بفتحتين، ويكسر التاء –: مجتمَع الكتفين؛ وهو الكاهل.

(بَادِنٌ) ضخم البدن؛ المناوي: ولا يناقض كونه بادنا ما في رواية البيهقي "ضرب اللحم"؛ لأن القلة، والكثرة، والخفة، والتوسط: من الأمور النسبية، المتفاوتة؛ فحيث قيل "بادن"؛ أريد عدم النحولة والهزال، وحيث قيل "ضرب"؛ أريد عدم السمن التام، ومعنى "ضرب اللحم": قليل لحم البدن خفيفه، لا إلى حد الهزال، وهو مما يتمدح به، كما قال طرفة:

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاشا كرأس الحية المتوقد

هذا ولما كانت البدانة؛ قد تكون من كثرة اللحم، والإفراط في السمن، الموجب لرخاوة البدن، وعدم استمساكه – وهو مذموم – دفعه بقوله:

(مُتَمَاسِكٌ) أي ليس بمسترخٍ، بل يمسك بعضه بعضا، من غير ترجرج؛ لما اشتمل عليه من الاعتدال التام، وبلوغ الغاية في تناسب الأعضاء والتركيب، حتى أنه في السن الذي شأنه استرخاء البدن؛ كان كالشباب؛ ففي حديث هند رضي الله تعلى عنه «كان بادنا متماسكا» أي معتدل الخلق، كأن أعضاءه يمسك بعضها بعضها؛ لقوتها، وعدم استرخائها.

وقال الغزالي: لحمه متماسك على خلقه الأول، لم يضره السن الذي من شأنه أن يسترخي اللحم فيه؛ بخلاف الشباب.

(ضَلِيعُ فَمٍ) عظيمه أو واسعه، والعرب تتمدح بسعة الفم، وتذم ضيقه، وكان

لسعة فمه يفتتح الكلام، ويختتمه بأشداقه، وهو دليل على قوة الفصاحة، وقيل هو كناية عن فصاحته.

قال في الحلة: يختتمه بأشداقه أي جوانب فمه لسعة شدقيه، أو لأنه يستعمل جميع فمه في التكلم، ولا يكتفي بأدنى تحريك للشفتين، كما هو شأن المتكبرين، والمقصرين، وكما تتمدح العرب بعظم الفم؛ تتمدح بكثرة ريقه عند المقامات، والخطب، والحروب؛ لدلالته على ثبات الجنان؛ بخلاف الجبان؛ فيجف ريقه في هذه المحافل هـ

والضليع في الأصل: الذي عظمت أضلاعه، ووفرت، فاتسع جنباه، ثم استعمل في موضع العظيم، وإن لم يكن ثمت أضلاع.

(ضَخْمُ) أي عظيم **(الْكَرَادِيسِ)** يعني جسيم الأعضاء؛ جمع كُردوس – بالضم — وهو كل عظمين التقيا في مفصل، نحو الركبتين، والمنكبين، والوركين، وقيل رؤوس العظام، وكيفما كان؛ يدل على وفور المادة، وكثرة الحرارة، وكمال القوة الدماغية، وقوة الحواس الباطنة؛ أراد أنه جسيم الأعضاء.

وفي البخاري عن أنس «كان ضخم الرأس واليدين والقدمين» وفي رواية "عظيم الهامة" والمراد: العِظم المعتدل، لا الخارج؛ إذ يدل على البلادة، كما يدل الصِّغر جدا على الخفة، وفي حديث علي أنه «كان صلى الله تعلى عليه وسلم ضخم الرأس» أي عظيمه، وهو محبوب ممدوح؛ لأنه أعون على الإدراكات، ونيل الكرامات والكمالات، وعبارة ابن سلطان: أنه دال على كمال القوى الدماغية؛ وبكمالها يتميز الإنسان عن غيره، وعبارة المناوي: أنه ءاية النجابة.

(قُلَّبُ) القلب – بزنة سكر –: المحتال البصير بتقليب الأمور؛ روي عن معاوية أنه لما احتُضر؛ كان يُقلّب على فراشه في مرضه الذي مات فيه،

فقال: إنكم لَتُقلبون حُوَّلاً قُلَّباً لو وُقي هول المطلع أي رجلا عارفا بالأمور، قد ركب الصعب والذلول، وقلَّبها ظهرا لبطن، وكان محتالا في أموره حسن التقلب هـ

فقول الشيخ "قلب": كأنه كناية عن تمام عقله صلى الله تعلى عليه وسلم، وكمال تدبيره للأمور، وسيأتي قوله ذَكِيُّ الْحِجَا.

(**بَعِيدُ الذِي بَيْنَ الْمَنَاكِبِ**) أي المنكبين، والمنكب – كمجلس –: مجمع العضد والكتف أي عريض أعلى الظهر، ويلزمه عرض الصدر؛ ومن ثم جاء في رواية ابن سعد "رحب الصدر"؛ وذلك ءاية النجابة.

(**وَاسِعُ جَبِيناً**) – تمييز – أي واسعُ جبينُه، والجبين: ما فوق الصدغ، عن يمين الجبهة وشمالها، والجبهة: ما بينهما، وقد يطلق الجبين عليها كما هنا، وقيل: كناية عن طلاقة الوجه، وسعةُ الجبين مما يدل على قوة الفهم والحواس؛ إذا لم يكن مفرطا، وسعة الجبهة: حسنها وشخوصها، أو طولها كما قيل.

(**طَلِيقُ الْوَجْهِ**): ضاحكه مشرقه، وفي المصباح: طَلُق الوجه – بالضم – طلاقة، ورجل طلق، وطلقُ الوجه أي فرح ظاهر البشر، وهو طليق الوجه؛ قال أبو زيد: متهلل بسام، وهو طلق اليدين: بمعنى سخي.

(**لَيْسَ يُقَطِّبُ**)؛ من التقطيب؛ قطب: زوى ما بين عينيه، وعبس، وكلح؛ يقال قطَب بالتخفيف، والتثقيل أي قبض ما بين عينيه، وكأن هذا توكيد لما قبله؛ فقد كان عليه السلام يَحْذَرُ الناس، ويحترس منهم، من غير أن يطوي عن أحد منهم بِشْرَهُ، ولا خُلقه، أي ولا حسن خلقه، وسيأتي – إن شاء الله تعلى – قوله "دائم البِشْر" بالكسر أي طلاقة الوجه وبشاشته؛ لا يعبس في وجه أحد.

....

وفي المواهب «أنه صلى الله تعلى عليه وسلم كان يمازح أصحابه، ويخالطهم، ويحادثهم، ويداعب صبيانهم، ويجلسهم في حجره»، والدعابة: الملاطفة في القول بالمزاح - بالضم -: اسم مصدر من "مزح"، وبكسر الميم: مصدر "مازح"، والملاطفة في الأفعال، كمَجِّه في وجه محمود هـ

والمزاح: هو الانبساط مع الغير، من غير إيذاء له؛ وبهذا فارق الهزء والسخرية.

والمداعبة - كما في النسيم -: الممازحة مع لعب؛ ولذا خصه بالصبيان.

جسوس: اعلم أن المزاح المباح: هو ما كان كمزاحه صلى الله تعلى عليه وسلم؛ وهو إنما كان على سبيل الندور؛ لمصلحة، كتطييب نفس المخاطب، ومؤانسته، وتأليفه، ورفع خوفه، وزوال خجلته، وأما الإفراط فيه، والمداومة عليه؛ فهو مذموم، منهيٌّ عنه

في حديث خرّجه الترمذي في جامعه: أن النبي صلى الله تعلى عليه وسلم قال: «لا تمار أخاك ولا تمازحه». انظر بقيته.

وفي النسيم: أنه صلى الله تعلى عليه وسلم «كان يمزح أحيانا، ولا يقول إلا حقا»، ولكنه يورِّي في كلامه، كما قال لبعض العجائز: «إنه لا يدخل الجنة عجوز»؛ لأنهم يعودون في سن الشباب، ثم قال: وكثرته مذمومة، كما قال:

فإياك إياك المزاح فإنه ... يُجَرِّي عليك الطفل والرجل النذلا
ويذهب ماء الوجه من كل سيد ... ويورثه من بعد عزته ذلا

والصحيح أنه جائز، وقيل إنه مكروه، والأصح الأول بشروطه، وكان كبار السلف يمزحون، وقد قيل: "الناس في سجن ما لم يتمازحوا"، وورد في الحديث «أنه صلى الله تعلى عليه وسلم كان أفكه الناس وكان مزّاحا ولا

يقول إلا حقا».

(**مُرَجَّلُ شَعْرٍ**) أي في شعره ترجيل أي تثنٍّ قليل، وتكسر خِلقة.

(**جَعْدُهُ**) أي كان في شعره الشريف جعودة أي تثَنٍّ وعدم استرسال، ولكنه لم يكن جعدا قططا أي شديد الجعودة، ولا سبطا -بفتح فكسر، أو.. فسكون، أو بفتحتين-؛ فشعَره ليس نهاية في الجعودة؛ وهي تكسره الشديد، ولا في السبوطة؛ وهي عدم تكسره وتثنيه بالكلية، بل كان وسطا بينهما، وخير الأمور أوساطها.

(**رَحْبُ رَاحَةٍ**) أي واسع الكف؛ وهو دليل الجود، وصغرها: دليل البخل، والراحة: بطن الكف مع بطون الأصابع.

جسوس: رحب الراحة: واسع الكف حسا ومعنى، ولحسان رضي الله تعلى عنه:

له راحة لو أُنَّ معشارُ جودها	على البر كان البر أندى من البحر
له همم لا منتهى لكبارها	وهمته الصغرى أجل من الدهر

أُنَّ بضم الهمزة: بمعنى صُبَّ، نائبه "معشار".

(**سَوَاءُ الْحَشَا**) يعني البطن (**وَالصَّدْرِ**) أي مستويهما؛ كناية عن أنه خميص الحشا أي ضامر البطن؛ ففي الترمذي "سواء البطن والصدر": بالإضافة؛ فصدره وبطنه صلى الله تعلى عليه وسلم: مستويان؛ بطنه لضموره لا يزيد على صدره، وصدره لكونه عريضا: مساوٍ لبطنه صلى الله تعلى عليه وسلم.

(**عَذْبٌ**) أي حلو، فقد بلغ صلى الله تعلى عليه وسلم غاية العذوبة؛ فهو أحلى الناس كلاما، ومعاشرة، وريقا.. وغير ذلك.

(**مُؤَدَّبُ**) القرطبي: قد روي عنه صلى الله تعلى عليه وسلم أنه قال: «أدّبني ربي تأديبا حسنا؛ ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾؛ فلما

قبلت ذلك منه قال: ﴿وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾».
قال في النسيم: أتى بـ"على"؛ إشارة لاستعلائه عليه؛ لكونه مجبولا بغير تكلف هـ
المناوي: وصفه بالعِظم، وزاده في المدحة بـ"على" المشعرة باستعلائه على معالي الأخلاق، واستيلائه عليها؛ فلم يصل إليها مخلوق، وكمال الخلق: إنما ينشأ عن كمال العقل؛ لأنه الذي تقتبس به الفضائل، وتجنب الرذائل.
وفي المواهب أنه صلى الله تعلى عليه وسلم قال: «إن الله عز وجل أدبني فأحسن تأديبي».
الزرقاني: أدبني أي علمني رياضة النفس، ومحاسن الأخلاق؛ فأحسن تأديبي؛ بإفضاله علي بالعلوم الوهبية؛ مما لم يقع نظيره لأحد من البرية، قال بعضهم: أدّبه بآداب العبودية، وهذبه بمكارم الأخلاق الرُّبوبية؛ لما أراد إرساله؛ ليكون ظاهر عبوديته مرْآة للعالم، كقوله «صلوا كما رأيتموني أصلي» وباطن أحواله مرآة للصادقين في متابعته، وللصديقين في السير إليه ﴿فاتبعوني يحببكم الله﴾.
وقال القرطبي: حفظه الله من صغره، وتولى تأديبه بنفسه، ولم يكله في شيء من ذلك لغيره، ولم يزل الله يفعل ذلك به، حتى كرّه إليه أحوال الجاهلية، وحماه منها؛ فلم يجْرِ عليه شيء منها؛ كل ذلك لطفٌ به، وعطفٌ عليه، وجمعٌ للمحاسن لديه.
وقال بعضهم: أدب الله روح رسوله، ورباها في محل القرب، قبل اتصالها ببدنه؛ باللطف، والهيبة؛ فتكامل له الأنس باللطف، والأدب بالهيبة، واتصلت بعد ذلك بالبدن؛ ليخرج من اتصالها كمالات أخرى؛ من القوة إلى الفعل، وينال كلٌّ من الروح والبدن بواسطة الآخر من الكمال: ما يليق بالحال، ويصير قدوة لأهل الكمال، والأدبُ: استعمال ما يحمد قولا وفعلا، أو الأخذ بمكارم الأخلاق، أو الوقوف مع المستحسنات، أو تعظيم مَن فوقه، مع الرفق بمن دونه، وقيل غير ذلك. انتهى منه.

إِذَا افْتَرَّ رِيءَ النُّورُ مِنْ فِيهِ خَارِجاً　　كَأَنَّ ثَنَايَاهُ بُرُوقٌ تَلَهَّبُ

وقد قلت:

مكارم الأخلاق يدعى الأدبا　　الاخذ بها وقال بعض الأدبا
تعظيم من فوقك والرفق بمن　　دونك للأدب تعريف حسن
أو حده استعمال ما قد حمدا　　قولا وفعلا فبهذا حددا
أو الوقوف مع ما استحسن ذا　　وقيل من مأدبة ذا أخذا
أي دعوة الطعام فهو يدعى(1)　　بذا لأنه إليه يدعى
كما به أخبر فتح الباري　　فحصلت فائدة الإخبار

(إِذَا افْتَرَّ) أي أبدى أسنانه الشريفة؛ ضاحكا، أو متكلما. وفي النهاية: افتَر: ابتسم، وكشر حتى تبدو أسنانه من غير قهقهة.
(رِيءَ) أي أُبصر **(النُّورُ مِنْ فِيهِ خَارِجاً)** -حال- **(كَأَنَّ ثَنَايَاهُ)**: جمع ثنِية؛ وهي أربع في مقدم الفم، ثنتان من فوق، وثنتان من تحت **(بُرُوقٌ تَلَهَّبُ)** أصله "تتلهب"؛ فحذف أحد التاءين أي تلمع وتضيء، شبه ثناياه صلى الله تعلى عليه وسلم بالبروق؛ لحسنها، وإضاءتها، وتلألئها؛ ففي حديث ابن عباس رضي الله تعلى عنهما قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْلَجَ الثَّنِيَّتَيْنِ إِذَا تَكَلَّمَ رُئِيَ كَالنُّورِ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ثَنَايَاه» أي شعاع مثله؛ فالكاف: بمعنى مثَل، وبنى "رأي" للمجهول؛ إشارة إلى أن الرؤية لا تختص بأحد دون أحد، وهذا النور حسي، ووهِم من قال: معنوي، والمراد وصف ثناياه صلى الله تعلى عليه وسلم بشدة البياض، والبريق، والصفاء، وروى البيهقي مسندا «إذا افتر ضاحكا افتر عن مثل سنا البرق»؛ السنا - بالقصر، وقد يمد، وقيل بالقصر -: النور، وبالمد: الشرف والعلو؛ يعني أنه إذا كشف صلى الله تعلى عليه وسلم عن أسنانه في حال ضحكه؛ ظهر من

---

1) أي يسمى.

....

فمه وبياض أسنانه لمعانٌ كلمعان البرق، وإنما خص التشبيه: بحال التبسم والسرور، وشبه ذلك بالبرق دون ما هو أضوأ منه - كالشمس والبدر -، إشارة إلى أنه لا يدوم ضحكه، وانفتاح فمه؛ لأن كثرة الضحك غير محمودة، ولم يكن ذلك من دأبه صلى الله تعلى عليه وسلم، ولأن تبسمه لمخاطبه يعقبه نفعٌ من عطائه، وكلامه، ورضاه، كما يعقب البرق المطر والرحمة العامة هـ

ومحصول جميع الأخبار أنه صلى الله تعلى عليه وسلم: أغلب أحيانه لا يزيد على التبسم، وربما زاد فضحك، والمكروه الإكثار منه، أو الإفراط فيه؛ لإذهابه الوقار، والذي ينبغي أن يقتدَى به من أفعاله: ما واظب عليه؛ وهو التبسم؛ فيقتصر عليه، وضحكه لبيان أنه ليس بحرام.

وقد قلت:

مِنْ أَدبِ العالمِ أنْ لا يضحكَا إلا ابْتساما ذا المدارك حَكَى
عنْ مالِك قال وكثْرةُ الكلامْ كرهها وعابَها النجم الإمامْ

وقد روى البخاري في الأدب المفرد: «لاَ تُكْثِرُوا الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ».

وفي الكشاف: أن ضحك الأنبياء لم يكن إلا تبسما.

وقد قلت:

تبسمٌ وضحكٌ وقهقههْ وقع بينها اتحادٌ في جههْ
لأن كلها انفتاح في الفمِ لكن بدون الصوت في التبسمِ
والثان مع صوت خفيف وخفِي ومع قوي الصوت ثالثٌ يفِي

وكان بكاؤه صلى الله تعلى عليه وسلم: من جنس ضحكه؛ لم يكن بشهيق ورفع صوت، كما لم يكن ضحكه بقهقهة، ولكن تدمع عيناه، حتى تهملان، ويسمع لصدره أزيز؛ يبكي رحمة لميت، وخوفا على أمته،

وشفقة، ومن خشية الله، وعند سماع القرءان، وأحيانا في صلاة الليل، وقد حفظه الله من التثاؤب.

(حَكَى) أي شابه **(ثَغْرُهُ)**: فمه؛ في البياض، والنقاء، والصفاء، **(حَبَّ الْغَمَامِ)** أي السحاب؛ وهو البَرَد – بفتحتين –: حب الثلج الصغير، ويكون أبيض صقيلا **(إِذَا بَدَا)** أي ظهر ثغره حين افتر.

قال في الشفا: إذا افترّ ضاحكا؛ افترّ عن مثل سنا البرق، وعن مثل حب الغمام هـ. فما أحقه صلى الله تعلى عليه وسلم بقول الحريري:

نفسي الفداءُ لثغرٍ راق مبسمُه ... وزانه شنبٌ ناهيك من شنبِ
يفترُّ عن لؤلؤٍ رطبٍ وعن بردٍ ... وعن أقاحٍ وعن طلعٍ وعن حبَبِ

(ذَكِيُّ) أي تام **(الْحِجَا)**: العقل والفطنة؛ فهو صلى الله تعلى عليه وسلم أرجح من جميع المخلوقين عقلا، وأوفرهم علما؛ قال في الشفا: وأما وفور عقله، وذكاء لبه؛ فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم، ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق، وظواهرهم، وسياسة العامة، والخاصة، مع عجيب شمائله، وبديع سيره؛ فضلا عما أفاضه من العلم، وقرره من الشرع دون تعلم سبق، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب منه: لم يمترِ في رجحان عقله، وثقوب فهمه لأول بديهة، وهذا مما لا يُحتاج إلى تقريره؛ لتحققه، وقد قال وهب بن منبه: قرأت في أحد وسبعين كتابا؛ فوجدت في جميعها: أن النبي صلى الله تعلى عليه وسلم أرجح الناس عقلا، وأفضلهم رأيا، وفي رواية أخرى: فوجدت في جميعها أن الله تعالى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله صلى الله عليه وسلم: إلا كحبة رمل من بين رمال الدنيا.

(سَبْطُ الْعِظَامِ) السبوطة: الامتداد أي ممتدها بلا تعقد، ولا نتوء. تاج العروس: وفي صِفَتِهِ صَلّى اللّهُ عليه وسَلّم "سَبط القَصَبِ"؛ رُوِيَ بسكون الباء وبكَسْرِها؛ وهو المُمْتَدُّ الّذي لَيْسَ فيه تَعَقّدٌ ولا نُتوءٌ، والقَصَبُ: يُرِيدُ بها

مُطيبُ.........................   ....

قَوِيمُ الْقَنَاةِ لَمْ يَكُنْ مُتَرَدِّدا   قَصِيراً وَلاَ هُوَ الطَّوِيلُ الْمُشَذَّبُ

ساعِدَيْهِ وساقَيْه هـ

المناوي: سبط القصب بالقاف أي ليس في ذراعيه وساقيه وفخذيه نتوءٌ، ولا تعقدٌ، والقصب: جمع قصبة: كل عظم أجوف فيه مخ.

(مُطيَّبُ) بصيغة اسم المفعول؛ فقد طيبه الله حيا وميتا، وطيب منه كل شيء، طيب أخلاقه، وطيب ريحه، وكل ما يخرج منه صلى الله تعلى عليه وسلم.

وفي الشفا عن أنس رضي الله تعلى عنه: ما شممت عنبرا قط، ولا مسكا، ولا شيئا: أطيب من ريح رسول الله صلى الله تعلى عليه وسلم، وعن جابر بن سمرة أنه صلى الله تعلى عليه وسلم مسح خده، قال: فوجدت ليده بردا وريحا؛ كأنما أخرجها من جؤنة عطار، قال غيره: مسها بطيب أم لم يمسها، يصافح المصافح؛ فيظل يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصبي؛ فيعرف من بين الصبيان بريحها.

(قَوِيمُ الْقَنَاةِ): معتدل القامة؛ القناة: القامة؛ وأصلها: الرمح، والعصا المستقيمة.

(لَمْ يَكُنْ مُتَرَدِّداً قَصِيراً) المتردد: الذي يتردد بعض خَلقه على بعض من قصره، وقيل لأنه يتردد الناظر فيه هل هو صبي؟، أو رجل؟.

(وَلاَ هُوَ الطَّوِيلُ الْمُشَذَّبُ) - بصيغة اسم المفعول -: هو البائن الطول في نحافة، وأصله النخلة الطويلة التي شُذب عنها جريدها أي قطع؛ لتطول؛ ففي الصحيحين عن أنس رضي الله تعلى عنه: «لَيْسَ بالطَّويل الْبَائِن» أي لم يكن مفرط الطول؛ فهو من "بَانَ": بمعنى ظهر؛ لظهور طوله، أو بعُد؛ لبعده عن قدر الرجال الطوال، أو لبعده عن الاعتدال، أو من المفارقة والانقطاع؛ لانفصال بعضه عن بعض، أو عن غالب الناس، أو عن الاعتدال

وَلَكِنْ وَسِيطاً رَبْعَةَ الْقَدِّ طَائِلاً مُمَاشِيَهُ وَلَوْ إِلَى الطُّول يُنْسَبُ

«ولا القصير المتردد» أي المتناهي في القصر؛ من التردد: بمعنى الرجوع، أو الدخول، كأن بعضه يدخل ويرجع إليه، وهذه صفة خلقته صلى الله تعلى عليه وسلم؛ لذم الطول المفرط، والقِصر المفرط.

(**وَلَكِنْ وَسِيطاً**) أي متوسطا بين الطول البائن والقصر.

(**رَبْعَةَ الْقَدِّ**) أي القامة والقدْر: بين الطول والقصر، إلا أنه إلى الطول أقرب؛ فوصفه بالربعة: تقريبي، لا تحديدي، والربعة: بفتحة فسكون، وقد يحرك، وتانيثه: باعتبار النفس؛ ولذلك استوى فيه المذكر والمؤنث؛ فجمع كل منهما: ربْعات بالسكون، والتحريك شاذ، وفي هذا ثبات صفة الكمال، بعد نفي النقصان؛ تكميلا للمدح، وعدمُ الاكتفاء باستلزام النفي الإثباتَ في مقام المدح: من فنون البلاغة.

(**طَائِلاً**) طاله: غلبه في الطول وزاد عليه أي غالبا في الطول (**مُمَاشِيَهُ**) بأن يمشي معه وبجنبه؛ بحيث يعرف مقدار القدود. (**وَلَوْ إِلَى الطُّول يُنْسَبُ**) والمراد بنسبته إلى الطول: اتصافه به، وكونه معروفا به مشهورا، فقد كان صلى الله تعلى عليه وسلم ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده، ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد من الناس ينسب إلى الطول؛ إلا طاله عليه السلام، ولربما اكتنفه الرجلان الطويلان؛ فيطولهما، فإذا فارقاه؛ نُسبا إلى الطول، ونسب هو عليه السلام إلى الربعة، وهذا مزية خص بها؛ تلويحا بأنه لم يكن أحد عند ربه أفضل منه، لا صورة، ولا معنى؛ وكان عليه السلام إذا جلس كان كتفه أعلى من الجالسين؛ قيل ولعل السر في ذلك أنه لا يتطاول عليه أحد صورة، كما لا يتطاول عليه معنى؛ وهل هذا محض إراءة لذلك؟ أو حقيقي يرجع عنه؟ فيه تردد.

ولم يخلق أطول من غيره؛ لخروجه عن الاعتدال الأكمل المحمود، ولكن

جعل الله له هذا في رأي العين؛ معجزة خصه الله تعلى بها؛ لئلا يرى تفوق أحد عليه بحسب الصورة، وليظهر من بين أصحابه؛ تعظيما له بما لم يسمع لغيره، فإذا فارق تلك الحالة؛ زال المحذور، وعلم التعظيم؛ فظهر كماله الخلقي.

(طَوِيلُ سُكُوتٍ) أي صمت؛ ففي حديث ابن أبي هالة رضي الله تعلى عنه: «كان رسول الله صلى الله تعلى عليه وسلم متواصل الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة طويل سكوت لا يتكلم في غير حاجة يفتتح الكلام ويختتمه باسم الله تعلى ويتكلم بجوامع الكلم».

قال ابن القيم: كَانَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَفْصَحَ الخَلْق، وَأَعْذَبَهُمْ كَلَامًا، وَأَسْرَعَهُمْ أَدَاءً، وَأَحْلَاهُمْ مَنْطِقًا، حَتّى إنّ كَلَامَهُ لَيَأْخُذُ بِالْقُلُوبِ، وَيَسْبي الْأَرْوَاحَ، وَقَدْ يَشْهَدُ لَهُ بِذَلِكَ أَعْدَاؤُهُ.

وقد جمعوا من كلامه المفرد الموجز البليغ البديع: دواوين لا تكاد تحصى.

وكان عليه السلام إذا تكلم؛ تكلم بكلام مبين، مرتل، مفصل، يعده العادُّ، ويفهمه كل من يسمعه، ويعيد الكلمة ثلاثا؛ لتحفظ عنه، وإذا تكلم؛ أسمع، ويخاطب الناس على قدر عقولهم، ويتكلم بجوامع الكلم، وبأوجز عبارة، في حسن بيان، وأفصح كلام، لا فضول فيه، ولا تقصير.

فائدة: قال جسوس: يندب للمعلم أن يتأنى في كلامه، ويتحرى في إيضاحه وبيانه، ويعيده ثلاثا، حتى يفهم عنه؛ وحكمة الثلاث: أن الأولى للإسماع، والثانية للوعي، والثالثة في الفكرة، أو الإشارة إلى أن مراتب الفهم ثلاث: أعلى، وأوسط، وأدنى، وأن من لم يفهم في ثلاث مرات؛ لم يفهم بأكثر.

وقد قلت:

قــال البخــاري "بــابُ مــن أعــادا ثلاثــــا الحــــديثَ" إذْ أرادا
ردّاً علـــى مُنكـــر الإســـتعادهْ مِـــن طالـــبٍ وعـــدَّ ذا بَـــلادهْ
كـذا علـى مَـن حالـةَ التحـديثِ قـد كرهـوا إعـادةَ الحـديثِ
والحـقُّ أنّ ذاك عنـد مَـن سَـلفْ بـالإختلافِ في القـرائحِ اختَلـفْ
فحيـثُ لم يَحفـظْ مَـن اسـتفادَا بـدْءاً فـلا عيـبَ إذَا اسـتعادَا
ثـم إعـادةُ المفيـدِ ألـزمُ مِـن ابتـداً إذِ الشـروعُ مُلـزمُ
فلـيس للمفيـدِ عـذرٌ في عـدم الإعـادة ابـنُ حجـرٍ بـذا حَكـمْ.

وقلت أيضا:

كـان كـلامُ أفصـحِ الأنـامِ مطابقـاً لِمُقتضـى المقـامِ
لا نقـصَ عـن تأديـة المـرادِ ولا علـى المحتـاجِ بـالمزدادِ
جوامـعُ الكلـمِ ربمـا يُلِـمْ بهـا فيـأتي بجوامـع الكِلـمْ
وهْـي الـتي ألفاظُهـا اليسـيرهْ تضـمنتْ معانيـاً كـثيرهْ.

ونورد بعضها للبيان والتبرك – وإن كانت بحرا لا ساحل له –؛ فمن كلامه صلى الله تعلى عليه وسلم الموجز البديع – كما في جسوس – قوله: «من آذى جاره أورثه الله داره» وقوله «لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك» وقوله «ترك الشر صدقة» وقوله «لا فقر أشد من الجهل ولا مال أعز من العقل ولا وحشة أشد من العجب» وقوله «الذنب لا ينسى والبر لا يبلى والديان لا يموت فكن كيف شئت» وقوله «صنائع المعروف تقي مصارع السوء وصدقة السر تطفئ غضب الرب وصلة الرحم تزيد في العمر» وقوله «القناعة مال لا ينفد وكنْز لا يفنى» وقوله «الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة والتودد للناس نصف العقل وحسن السؤال نصف العلم» وقوله «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» وقوله «ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» وقوله «إياكم وخضراء الدمن المرأة الحسناء في المنبت السوء»

وقوله «استعينوا على الحاجات بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود» وقوله «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسَعوهم بأخلاقكم» وقوله «الْخُلق السيئ يفسد العمل الصالح كما يفسد الخل العسل» وقوله «أخسَر الناس صفقة من أذهب ءاخرته بدنيا غيره» وقوله «اليمين حنث أو ندم» وقوله «ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد إلا رفعه الله» انتهى منه.

فائدة أخرى: ذكر الشيخ الحسن اليوسي – رحمه الله – تعلى في "مشرب العام والخاص": أن ما أعطيه صلى الله تعلى عليه وسلم من جوامع الكلم: يكون لأهل الوراثة من أمته – كالشافعي رضي الله تعلى عنه – نصيب منه ومشرب، وفي الحديث: «أن الأنبياء لم يورِّثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم».. الحديث، ذكر اليوسي هذا إثر قصة الشافعي مع بشر المرِّيسي لما سأله عن التوحيد، فقال الشافعي رضي الله تعلى عنه: "أن لا تتهمه ولا تتوهمه"؛ فبُهت بشر، فقد جمع الشافعي رضي الله تعلى عنه في هاتين الكلمتين علوم التصوف وعلوم التوحيد جميعا، وبيان ذلك بالإشارة: أن عدم الاتهام هو الثقة بضمانه، والتوكل عليه والتفويض له والتسليم، وهذا هو جوهر التصوف وحقيقته، وعدم التوهم هو العلم بأنه متنَزه عن سمات المستحدثات، متعال عن جميع التغيرات، مخالف لجميع الكائنات، مباين لكل ما يخطر في الأَوهام والخيالات، وهذا هو أمر التوحيد، والغرض المطلوب اعتقاده؛ إذ العقول محجوبة عن الكنْه؛ فلم يبق لها إلا التنْزيه، فقد احتوت الكلمتان على العلمين معا. انظر بسط ذلك في المشرب المذكور.

(سَالِمُ صَدْرُهُ) أي قلبه، يعني أنه كان سالما من الكبر، والغش، والحسد، والحقد، وكل خلق مذموم، وما ينشأُ عن شيء منها؛ من غيبة، ونميمة، ونحوها، بل كانت أخلاقه صلى الله تعلى عليه وسلم على الضد من ذلك؛ فقد بلغ من التواضع، والشفقة على الخلق، وشدة الرأفة بهم، والحلم،

والصبر، والصفح عنهم مبلغا لا يعلمه إلا الله تعلى، وقد ورد في حديث علي كرم الله وجهه «أنه صلى الله تعلى عليه وسلم أجود الناس صدرا وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة».

(دَقِيقُ) بالدال، وروي بالراء **(مَسْرُبَةٍ)** - كمكرمة -: خيط الشعَر الذي بين الصدر والسرة، والوصف بالدقة: للمبالغة، وبين الدقيق والرقيق فرق دقيق؛ قال في النسيم: والمراد أنه ليس بعريض، ولا متكاثف الشعر هـ

وفي شرح الإحياء: اختلف هل كان لإبطيه صلى الله تعلى عليه وسلم شعر؛ فزعم القرطبي أنه لم يكن، وقد ردّه أبو زرعة العراقي بأن ذلك لم يثبت بوجه من الوجوه، والخصائصُ لا تثبت بالاحتمال، ولا يلزم من ذكر أنس وغيره بياض إبطيه: أن لا يكون له شعر؛ فإنه إذا نُتف بقي المكان أبيض وإن بقي فيه أثرٌ.

(أَقْنَى) والقنا: طول الأنف ودقة أرنبته، مع حدب في وسطه.

هذا والمشهور أنه صلى الله تعلى عليه وسلم كان أشم الأنف أي مرتفع قصبته، مع استواء أعلاه وإشراف الأرنبة قليلا؛ فلِحسن قناه والنور الذي علاه: يخفى على الناظر إليه من غير تأمل حدب وسطه، ويظن استواء القصبة، ولو أمعن النظر لحَكم بخلاف ذلك كما مر.

(وَجِيهٌ) أي عظيم الجاه عند الله تعلى؛ بحيث لا يُدانيه جاه أحد من المقربين، والجاه والجاهة: القدر والمنْزلة، ويكفي في عِظم جاهه صلى الله تعلى عليه وسلم: شفاعته الكبرى في الموقف الهائل، حين تبرأ منها أكابر الرسل، وردوها إليه صلى الله تعلى عليه وسلم، فقال: «أنا لها» أي صاحبها المعدُّ لها.

.... مُرَجَّبُ

وَقَدْ وَسِعَ الأَقْوَامَ حِلْماً وَبَسْطَةً   وَصَارُوا سَوَاءً فِيهِ ....

قال في الشفا: لا خلاف أنه أكرم البشر، وسيد ولد آدم، وأفضل الناس مَنْزلة عند الله، وأعلاهم درجة، وأقربهم زلفى.

واعلم أن الأحاديث الواردة في ذلك كثيرة جدا، وقد اقتصرنا منها على صحيحها ومنتشرها، وحصرنا معاني ما ورد منها في اثني عشر فصلا هـ فراجع تلك الفصول، وانظر ما يأتي — إن شاء الله تعلى — في الخاتمة.

(**مُرَجَّبُ**)- بفتح الجيم مشددة - أي معظم عند الله تعلى، وعند الناس؛ ففي حديث هند «كان رسول الله صلى الله تعلى عليه وسلم فخما مفخما» أي عظيما في نفسه، معظما في العيون، والقلوب، عند كل من رءاه، قد كُسي الهيبة والوقار، لا يستطيع مكابرٌ أن لا يعظمه، وإن حرص على ترك تعظيمه؛ كان مخالفا لما في باطنه، وقيل فخما عظيم القدر عند صحبه، مفخَّما معظما عند من لم يره قط.

(**وَقَدْ وَسِعَ**) - كفرح - أي عم وشمل (**الأَقْوَامَ**) جمع قوم: جماعة الرجال ليس فيهم امرأة؛ سُموا بذلك؛ لقيامهم بالعظام والمهمات، وقد يشمل النساء تبعا كما هنا أي عمهم كلهم، حتى المنافقين (**حِلْماً**) - تمييز - أي وسعهم حلمُه؛ وهو حالة توقُّر وتثبت عند الأسباب المحركات. (**وَبَسْطَةً**) البسطة والبسط: طلاقة الوجه أي وسعهم سرورُ ظاهره، وطيبُ باطنه؛ جودا ورحمة، وحلما وعفوا ومغفرة وسلْما؛ ففي الشفا: قد وسع الناس بسطه وحلمه.

قال في النسيم: جعل بسطه بمعنى توسعته على الناس، أو بمعنى بشره، كالمكان الرحب، وكذا خلقه الحسن؛ جعله يبذله لهم، كالمكان الذي تمكنوا فيه.

(**وَصَارُوا**) أي الأقوام (**سَوَاءً فِيهِ**) أي في مراعاة حقهم؛ بحسن خلقه معهم؛ فهم مستوون عنده؛ لعصمته من الأغراض النفسية، الحاملة على خلاف التسوية.

.... وَهْوَ لَهُمْ أَبُ

مَهيبٌ إذا لاقَيْتَهُ عَنْ بَدِيهَةٍ وَإمَّا تُخَالِطْهُ فَخُلْقٌ مُحَبَّبُ

(وَهْوَ لَهُمْ أَبُ)؛ فهو لجميع أمته: بمنْزلة الأب؛ في اللطف بهم، والشفقة عليهم، بل هو عليه السلام: أشفق؛ إذ غاية الأب: أن يسعى في صلاح الظاهر، وهو صلى الله تعلى عليه وسلم يسعى في صلاح الظاهر والباطن، وكذلك كل نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: أبٌ لأمته؛ فمن حديث هند «أنه صلى الله تعلى عليه وسلم يُعْطِي كُلَّ جُلَسَائِهِ بنَصِيبِهِ، لاَ يَحْسَبُ جَلِيسُهُ أَنَّ أَحَدًا أَكْرَمُ عَلَيْهِ مِنْهُ، مَنْ جَالَسَهُ أَوْ فَاوَضَهُ فِي حَاجَةٍ؛ صَابَرَهُ، حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُنْصَرِفَ عَنْهُ، وَمَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً؛ لَمْ يَرُدَّهُ إلاَ بِهَا، أَوْ بمَيْسُورٍ مِنَ الْقَوْلِ، قَدْ وَسِعَ النَّاسَ بَسْطُهُ، وَخُلُقُهُ، فَصَارَ لَهُمْ أَبًا، وَصَارُوا عِنْدَهُ فِي الْحَقِّ سَوَاءً، مَجْلِسُهُ مَجْلِسُ عِلْمٍ، وَحِلْمٍ، وَحَيَاءٍ، وَأَمَانَةٍ، وَصَبْرٍ»... الحديث.

(مَهيبٌ) يهابه غيره أي يخافه مخافة العظمة، ويقع في قلبه منه المهابة (إذَا لاقَيْتَهُ عَنْ بَدِيهَةٍ): بغتة ومفاجأة أي أول رؤية؛ بدهه – كمنع –: فجأه، والبده والبداهة – ويضمان – والبديهة: أول كل شيء، وما يفجأ منه، ويقال لكل ما يُفْعل عجَلَةً من غير روية: بديهةٌ، وأصله في الكلام، وغلب في الشعر من غير روية وتفكر، والارتجالُ أسرع من البديهة.

(وَإمَّا)؛ "إن" الشرطية زيدت بعدها "ما" (تُخَالِطْهُ فَخُلْقٌ) – بالضم – الطبيعة (مُحَبَّبُ) – بصيغة اسم المفعول –؛ يقال: حبب الله إلي كذا أي جعلني أحبه؛ ومنه ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾.

يعني أن من رءاه صلى الله تعلى عليه وسلم لأول وهلة يهابه، ويعظمه، ويبجله؛ لما كساه الله تعلى من الهيبة والجلالة، ومن خالطه مخالطة معرفة – أي من عرف ما فيه من مكارم الأخلاق؛ من خفض الجانب، وحسن العشرة، ودوام البشرة –؛ أحبه إلى الغاية، حتى يكون أحب إليه من

نفسه، وولده، ووالديه، والناس أجمعين؛ ففي حديث علي كرم الله وجهه: «من رءاه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه»؛ معرفة: حال أي ذا معرفة، أو مفعول مطلق أي مخالطة معرفة، أو لأجل المعرفة، لا لأجل النفاق والعداوة والانتقاد؛ يعني أن من عاشره معاشرة معرفة؛ أحبه؛ لظهور ما يوجب الحب؛ من كمال حسْن خلقه، ومزيد شفقته، ولأن الله تعلى سخر القلوب لمحبته، وإذا أحب الله تعلى بعض عباده؛ ألقى عليه محبة الناس.

وقد ورد في هيبته صلى الله تعلى عليه وسلم أحاديث كثيرة فقد جاء إليه رجل فقام بين يديه فأخذته رعدة شديدة ومهابة؛ قال له: «هَوِّنْ عَلَيْكَ؛ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، وَلاَ جَبّارٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْش تَأْكُلُ الْقَدِيد بمكة»؛ فنطق الرجل بحاجته؛ لما سكّن روعه بقوله: "لَسْتُ بِمَلِكٍ"؛ لأن الملوكية يلزمها الجبروتية، وبقوله إِنَّمَا أَنَا إلخ؛ لأن القديد مفضول؛ وهو مأكول أهل المسكنة.

جسوس: قال العلماء: والمهابة: أثر من ءاثار امتلاء القلب بعظمة الله تعلى، وجلاله، ومحبته؛ فإن القلب إذا امتلأ بذلك؛ حله النور، ونزل عليه السكينة، وألبس رداء الهيبة، وقرت به العيون، وأنست به القلوب، إن سكت علاه الوقار، وإن نطق أخذ بالقلوب والأسماع، وهكذا الشأن في أولياء الله تعلى؛ لامتلاء قلوبهم بمحبة الله وإجلاله وعظمته.

وفي الصحيح: «خِيَارُ أُمَّتِي الَّذِينَ إِذَا رُأُوا ذُكِرَ اللَّه» أي لما يعلوهم من البهاء والهيبة؛ لانفراد قلوبهم بربهم، وأنسهم به؛ فلهم به نسبة هـ

ثم قال العلماء: ولم يظهر للخلق كمال مهابته وجلاله؛ رحمة من الله بخلقه، ولو ظهر لهم ذلك؛ لتلاشوا، واضمحلوا، ولم يقدروا على التلقي منه، ومع عدم ظهور كمال جلاله؛ كان يحدث أصحابه، ويؤنسهم، ويأخذ معهم في تدبير أمورهم، ويذكر معهم الدنيا، والطعام، ويمازحهم أحيانا، ولا

يقول إلا حقا، ويذكرون أشياء بحضرته؛ من أمور الجاهلية؛ فينصت، ويضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ولا يزجرهم إلا عن حرام، وكل ذلك رفقا بهم ﴿وكان بالمؤمنين رحيما﴾. انتهى باختصار.

(أَشَدُّ مِنَ الْعَذْرَا) بالقصر ضرورة أي البكر التي لم تنْزع عذرتها؛ سميت بذلك لبقاء عذرتها؛ وهي جلدة البكارة، أو لضيقها؛ من قولهم: تعذر الأمر إذا ضاق.

(حَيَاءً) تمييز أي استحياء: من ربه، ومن الخلق؛ يعني أن حياءه أشد من حياء العذراء، والحياء في الشرع: خلقٌ يبعث على اجتناب القبيح، ويحض على ارتكاب الحسن، ومجانبة التقصير في الحق؛ وهو من جُملة الخلق الحسن، وقد أفرده في الشمائل بالترجمة؛ للتنبيه على عظم شأنه؛ لأن به ملاك الأمر كله، في حسن معاملة الحق، ومعاشرة الخلق، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم «الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ».

(بِخِدْرِهَا) – حال – وهو بالكسر: ستر يجعل للبكر إذا ترعرعت في جانب البيت؛ لتنفرد به، حتى عن النساء، ولا شك أن العذراء التي تتربّى فيه: أشدُّ حياء من التي تخالط غيرها، أو تكون داخلة خارجة؛ فقد رُوي «أنه كان من حيائه لا يثبت بصره في وجه أحد» أي ناظرا إليه؛ لاستيلاء الحياء عليه، وإثبات البصر: بمعنى إطالة النظر من غير تخلل إغماض بجفن ونحوه، حتى كأن بصره صار قارّاً في المرْئي.

والحياء: من الأوصاف المحمودة؛ ما لم ينتهِ إلى ضعف، أو جبن، أو خروج عن الحق، أو ترك إقامة حد؛ وإلاّ كان مذموما، وحياؤه ﷺ كان مبرءا من ذلك كله؛ ولهذا قال للذي اعترف بالزنى: «أَنِكْتَهَا لاَ تَكني» أي صرح بالنيك، ولا تكني به. رواه البزار عن أنس. هكذا في جسوس، وفي البخاري بلفظ "لا يكني"؛ قال في الفتح: أي تلفظ ﷺ بالكلمة المذكورة، ولم يكنِ عنها بلفظ ءاخر هـ

وروى البزار أيضا: «كان النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم يغتسل من وراء الحجرات وما رأى أحد عورته قط».

(كَرِيمُ السَّجَايَا): الأخلاق، جمع سجية: الخلق – بضم وبضمتين –: وهو عبارة عن أوصاف الصورة الباطنة، والسجايا النفسية، التي طبع الإنسان عليها؛ فمن ذلك التواضع، والحياء، وحسن المعاشرة، والصفح، والعفو، والاحتمال، والسخاء، والصبر، والشكر، والعدل، والزهد، والشجاعة، والصمت، والوقار، والتؤدة، والمحبة، والأمانة، والعبادة، والخوف، والشفقة.. وغير ذلك، كما في جسوس.

ثم قال: واعلم أن أصول هذه الأخلاق العظيمة: جبلِّية جبل عليها ﷺ في أصل خلقته، وأول فطرته، لم تحصل له باكتساب، ولا رياضة، إلا بجود إلهي، وخصوصية ربانية، وهكذا سائر الأنبياء، ومن طالع سيرهم؛ منذ صباهم.. إلى مبعثهم؛ حقق ذلك، كما قال في الشفا.

وأما كمالها وتمامها؛ فهو مكتسب من القرءان؛ فهي جبلية مكتسبة من القرءان باعتبارين؛ فقد سئلت عائشة رضي الله تعلى عنها عن أخلاقه ﷺ، فقالت: كان خلقه القرءان، تعني التأدب بآدابه، والتخلق بمحاسنه، والالتزام لأوامره، وزواجره، كقوله ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾الآية وقوله ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وقوله ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وقوله ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وقوله ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقوله ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الآية وقوله ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وقوله ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ﴾ الآية .. وغير ذلك من التأديبات التي لا تنحصر.

(لِلرَّدِي) أي الخلق الرديِّ **(مُتَجَنِّبُ)** يعني أنه ﷺ، كان كريم الطبع، لين

الجانب، متجنبا – أي مباعدا – لكل خلق ينكر – أي تكرهه النفوس –؛ فقد قال ﷺ: «إنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاق» وقال: «إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَكَارِمَ الأَخْلَاق وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا» أي حقيرها ورديئها، أي من اتصف من عبيده بالأخلاق الزكية أحبه، ومن تخلق بالأوصاف الردية كرهه، وقد خلق سبحانه لكل من القسمين أهلا. انظر شرح الإحياء.

(يَزُولُ): ينتقل ويذهب؛ يقال: زال يزول؛ إذا فارق مكانه.

(تَقلُّعاً) إما مفعول مطلق، أو حال، والتقلع: المشي بقوة؛ من قلع الشجرة؛ إذا نزعها من أصلها.

والمعنى: أنه ﷺ كان إذا مشى؛ يمشي حال كونه قالعا لرجله من الأرض بقوة، أي رافعا لها رفعا بائنا، مع السرعة، متداركا إحدى رجليه بالأخرى؛ مشية أهل الجلادة والقوة، ولا يجرهما حال مشيه، كمشية المختال، والعاجز، والكسلان.

(وَيَخْطُو) أي يمشي حال كونه: **(تَكَفُّؤاً)** أي مائلا إلى جهة ممشاه ومقصده، معتدلا بدون انحراف عنها؛ فالتكفؤ: الميل إلى سَنن المشي، أي إلى قدام، كالسفينة في جريها، والتكفؤ مهموز في الأصل، ويُخفف؛ فعلى الأصل يقرأ بضم الفاء، كتقدّم تقدُّما، وإذا خفف؛ يقرأ تكفّى تكفِّيا، كتسمَّى تسمِّيا، وهذه الجملة مؤكدةٌ لمعنى التي قبلها، أو بمعنى: يتمايل يمينا وشمالا، واعتراضه بأن هذه مشية المختال؛ رده عياض؛ بأنه لا يذم إلا أن يقصد، لا إن كان خلقة هـ

(وَيَمْشِي) تفنن؛ حيث عبّر عن المشي بعبارتين؛ فرارا من كراهية تكرير اللفظ.

(الْهُوَيْنَى) أي مشي الهوينى؛ تصغير الْهُونى؛ تانيث الأهون، والتصغير للتعظيم، أي كان يمشي ﷺ مشياً فيه تؤَدَةٌ، ورفقٌ، وسكينةٌ، ووقارٌ، وفي حديث هند: «وَيَمْشِي هَوْنًا»، والهون: الرفق واللين، وعدم العجلة، وقد مدح الذين يمشون كذلك فقال عز من قائل: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ

عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ الآية، ولا ينافي ذلك رواية الترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعلى عنه «ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله عليه و سلم في مشيته كأنما الأرض تطوى له إنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث» أي لأنه كان يبارك له في مشيه؛ فلذلك كانوا لا يلحقونه.

المناوي: لا تعارض بين الهون الذي هو عدم العجَلة وبين الانحدار والتقلع الذي هو السرعة فمعنى الهون الذي لا يعجل في مشيته ولا يسعى عن قصد إلا لحادث أمر مهم، وأما الانحدار والقلع فمشيه الخلقي.

قال الزهري: سرعة المشي تذهب بهاء الوجه؛ يريد الإسراع غير الخفيف؛ لأنه يخل بالوقار، والخيرُ في الأمر الوسطُ، وسرعة سعيه ﷺ كانت برفق وتثبت، دون عجَلة وهوَج، وإسراعُ عمر رضي الله تعلى عنه جبلة لا تكلف.

(دَائِمُ الْبِشْرِ) - بالكسر -: طلاقة الوجه، والبشاشة، وحسن الخُلق مع الخلَق؛ فعن علي رضي الله تعلى عنه «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَائِمَ الْبِشْرِ»؛ ووجه الجمع بينه وبين قول هند: «كَانَ مُتَوَاصِلَ الْأَحْزَانِ»: باطنا، وكان دائم البشر ظاهرا؛ تاليفا للناس؛ فلا منافاة بين كثرة الحزن الذي هو من كيفيات الباطن، وبين كثرة التبسم والبشر الذي هو من كيفيات الظاهر، بل لا منافاة بين حزنه الذي هو أثر من ءاثار الخوف، وبين فرحه بالله تعلى، وتنعم قلبه بذكره، كما لا منافاة في الجمع بين الخوف والرجاء.

وقد قلت:

كَانَ النَّبِي دَائِمَ بِشْرٍ فِي الْعَلَنْ وَهُوَ سِرّاً مُتَوَاصِلُ الْحَـزَنْ

(طَيِّبُ) حيا وميتا، فقد روي عن علي كرم الله وجهه أنه حين غسل النبي صلى الله عليه وسلم مسح بطنه، فلم يجد شيئا؛ فقال: طبت حيا وميتا، ومثله قال أيضا أبو بكر رضي الله تعلى عنه حين قبّل النبي ﷺ بعد موته، كما في النسيم.

قال في التاج: وفلان طيب الأخلاق؛ إذا كان سهل المعاشرة.

فَدُونَكَ مِنْ أَوْصَافِهِ الْغُرِّ جُمْلَةً تَضَمَّنَهَا نَظْمِي بِهَا الدَّهْرَ يَعْذُبُ

والطيب: من أسمائه ﷺ كما في المواهب: الطاهر أو الزكي؛ لأنه لا أطيب منه كما في الزرقاني، وذكره أيضا في جامع الآثار؛ فقال: هو الذي سلم عن خبث القلب حين رميت منه العلقة السوداءُ، وسلم عن خبث القول؛ فهو الصادق المصدوق، وعن خبث الفعل؛ فعمله وأحواله كلها طاعة هـ والطيب أيضا: صفة له؛ فهو ﷺ أطيب الطيبين، ولا أطيب منه، وحسبك أن عرقه كان أطيب الطيب، ومن توصل إليه؛ يجعله في طيبه، ومن تطيب به؛ عبقت رائحته.

وفي المواهب عن أنس قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مر في طريق من طرق المدينة؛ وجدوا منه رائحة الطيب، وقالوا: مر رسول الله ﷺ من هذا الطريق». رواه أبو يعلى والبزار بإسناد صحيح.

الزرقاني: لأن القلب الطاهر الحي يشم منه رائحة الطيب، كما أن القلب الخبيث الميت يشم منه رائحة النتن؛ لأن نتن القلب والروح يتصل بباطن البدن أكثر من ظاهره، والعرق يفيض من الباطن؛ فالنفس الطيبة يقوى طيبها، ويفوح عرف عرقها، حتى يبدو على الجسد، والخبيثة بضدها، وكذا في المناوي أيضا.

(فَدُونَكَ) – اسم فعل – أي خذ أيها المتعطش إلى معرفة أوصافه الخَلقية والخُلقية **(مِنْ أَوْصَافِهِ)**: صفاته، والصفة: ما دل على معنى في الذات؛ حسيا كالبياض، أو معنويا كالعلم. **(الْغُرِّ)** لحسنها وشهرتها؛ يقال: رجل أغر؛ إذا كان صبيح الوجه **(جُمْلَةً)** أي مقدارا مجموعا **(تَضَمَّنَهَا نَظْمِي)** أي اشتمل عليها منظومي يعني هذه القصيدة حال كونه **(بِهَا)** صلة يعذب **(الدَّهْرَ)** ظرف **(يَعْذُبُ)** يعني أن نظمه يحسن عند السامع لفظا ومعنى مدى الزمن بها أي بسبب تضمنه لتلك الأوصاف الغر؛ يقال: عذب الماء عذوبة؛ إذا كان مستساغا طيبا، وعذوبة اللفظ: هي حسنه؛ بأن يكون في غاية البعد

عن التنافر والثقل؛ وذلك يشمل ما يكمل به حسنه وحلاوته من كل وجه؛ من حسن سبك، وصحة معنى.

(أَأَحْمَدُ) منادى مبني على الضم؛ ناداه بالهمز لقربه ﷺ منه رضي الله عنه، وعمارة باطنه بمحبته، ولا يستغرب أيضا كونه مشاهدا له؛ فقد حكيت رؤيته ﷺ عن جماعة من الأماثل، كالإمام عبد القادر الجيلي، وأبي الحسن الشاذلي، وأبي العباس المرسي .. وغيرهم كما في جسوس وغيره.

قال في شرح روضة النسرين: ولا يبعد أن من أكرم برؤيته؛ يكرم بإزالة الحجب بينه وبينه؛ فهو ﷺ – مع كونه في قبره – يراه الأولياء في اليقظة في قبره، ويحادثونه وإن بعدت ديارهم، واختلفت مراتبهم في الحالة الواحدة، ولا يلزم من وقوع ذلك لهم على جهة الكرامة الباهرة أن يكونوا أصحابه؛ إذ الصحبة انقطعت بموته ﷺ هـ؛

لأن الصحابي: كل من اجتمع مؤمنا بمحمد ﷺ وإن لم يره ولم يطل انتهى منه.

(هَذَا) مبتدأ، خبره: **(أَحْمَدٌ)** – بالصرف ضرورة – يعني نفسه **(مُتَوَسِّلاً)**: متوصلا متقربا – حال على حد ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ – قال في بصائر ذوي التمييز: وسّل إلى الله وسيلة: عمل عملا تقرب به إليه، كتوسل.

(بِمَدْحِكَ)؛ مدحه مدحا: أثنى عليه بما فيه من الصفات الجميلة؛ خلقية أو اختيارية؛ فالمدح: أعم من الحمد.

يعني أنه جعل مدحه ﷺ وسيلة لنيل مرغوبه؛ فهو جدير بظفره به، وقوله هَذَا أَحْمَدُ؛ كأنه يقول: هذا متسمٍّ باسمك؛ فكما صرح بتوسله بالمدح؛ لوّح بالتوسل أيضا بتسميته بالاسم، وقد قال البوصيري :

إنْ ءَاتِ ذَنْباً فَمَا عَهْدِي بِمُنْتَقِضٍ ... مِنَ النَّبِيِّ وَلاَ حَبْلِي بِمُنْصَرِمِ

فَإِنَّ لِي ذِمَّةً مِنْهُ بِتَسْمِيَتِي ... مُحَمَّداً وَهْوَ أَوْفَى الْخَلْقِ بِالذِّمَمِ

قال الباجوري: قوله فَإِنَّ لِي ذِمَّةً إلخ: تعليل لما قبله؛ ووجه ذلك: أن اختياره التسمية باسمه ﷺ دليل على محبته فيه؛ فإنه لا يتسمى بالاسم إلا من أحب مسماه، وأما من يكرهه؛ فلا يتسمى.
وقوله وَهْوَ أَوْفَى الْخَلْقِ بِالذِّمَمِ أي وهو ﷺ أشدهم وفاء بها؛ فيقوم بحقها؛ بأن يشفع لأهلها لعظم جاهه ومكانته عند ربه هـ
ثم ساق أحاديث في عدم تعذيب من سمي باسمه ﷺ فانظرها فيه هـ
وقد سئل عن ذلك الشيخ عبد القادر الفاسي؛ فأجاب بما نظمه العلامة زين ابن اجّمد رحمه الله تعلى في عقده أجوبته؛ وهو:

ولم يصحَّحْ خبرٌ بعدمِ ... تعذيبِ مَن باسمِ محمدٍ سُمِي
لكنّ جاهَه عظيمٌ فاللَّجا ... إليه كلُّ الخيرِ فيهِ يُرتجى

وللعلامة الرباني الشيخ محمذ فال بن متالي رحمه الله تعلى :

ثم التسمي باسمه ميمون ... في ذي وتلك الدار لا ممنون

أي لا منقطع يُمنُه ونفعه في الدنيا والآخرة.
ابن أبي جمرة عند حديث «تَسَمَّوْا بِاسْمِي وَلاَ تَكَنَّوْا بِكُنْيَتِي» ما نصه: أما إباحته ﷺ لهم التسمية باسمه عليه الصلاة والسلام؛ فذلك لما جاء فيه من الخير؛ لأنه قد جاء أن من اسمه محمد لا يخلو من خير، وقد ذكروا أنه إذا نودي يوم القيامة باسمه يا محمد؛ فمن سمعه ورفع له رأسه؛ أفلح وسعد، وجاءت فيه مما يشبه هذا ءاثار كثيرة. انتهى منه.
وقال السيوطي في حاويه: أخرج ابن بكير في فضل من اسمه محمد وأحمد من حديث أبي أمامة «من ولد له مولود فسماه محمدا حبا لي وتبركا باسمي كان هو ومولوده في الجنة» وسنده عندي على شرط الحسن هـ
وقد ذكر الباجوري أيضا هذا الحديث قائلا: رواه صاحب الفردوس.
(**وَالأَجْوَادُ**) جمع جواد: السخي (**بِالْمَدْحِ تُطْلَبُ**) ففي الثناء على العظماء تعريض بالسؤال؛ قال أمية بن أبي الصلت لابن جدعان يطلب نائله:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوما كفاه من تعرضه الثناء

وقال سيدي جسوس: إن السعي في معرفة صفاته السنية؛ فيه خدمة لجنابه ﷺ، وثناء عليه، وتعلق به، وتعظيم لقدره، وتقرب، وتودد، واستعطاف، وانتساب، وتعرض لنفحات فضل الممدوح، وفتح لأبواب خزائن ما ياتي من قِبله؛ فإن الكرام إذا مدحوا أجزلوا المواهب والعطايا، وقد أعطى العباس بن مرداس لما مدحه ﷺ مائة من الإبل، وخلع حلته على كعب لما مدحه بقصيدته التي يقول فيها:

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

إلى أن قال: وقد ورد أن من قال: جزى الله عنا محمدا ﷺ ما هو أهله؛ أتعب سبعين كاتبا ألف صباح، وفي رواية "ألفي صباح" هـ
قال سيدي محمد بنيس: أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس رضي الله عنهما.
وقد قال الشعراني في العهود: أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نسأل الله تعلى شيئا إلا بعد أن نحمد الله تعلى، ونصلي على محمد ﷺ، وذلك كالهدية بين يدي الحاجة، وقد قالت عائشة رضي الله تعلى عنها: مفتاح قضاء الحاجة الهدية بين يديها؛ فإذا حمدنا الله تعلى؛ رضي عنا، وإذا صلينا على النبي ﷺ؛ شفع لنا عند الله في قضاء تلك الحاجة، وقد قال تعلى ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾، وتأمل بيوت الحكام؛ تجدها لا بد لك فيها من الواسطة الذي له قرب عند الحكام، وإدلال عليه؛ ليمشي لك في قضاء حاجتك، ولو أنك طلبت الوصول إليه بلا واسطة؛ لم تصل إلى ذلك، وإيضاح ذلك أن من كان قريبا من المِلك؛ فهو أعرف بالألفاظ التي يخاطب بها المِلك، وأعرف بوقت قضاء الحوائج؛ ففي سؤالنا للوسائط:

سلوك الأدب معهم، وسرعة لقضاء حوائجنا، ومن أين لأمثالنا أن يعرف أدب خطاب الله عز وجل، وقد سمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله يقول: إذا سألتم الله حاجة؛ فاسألوه بمحمد ﷺ، وقولوا: اللهم إنا نسألك بحق محمد ﷺ أن تفعل لنا كذا وكذا؛ فإن لله ملكا يبلغ ذلك لرسول الله ﷺ، ويقول: إن فلانا سأل الله تعلى بحقك في حاجة كذا وكذا؛ فيسأل النبي ﷺ ربه في قضاء تلك الحاجة؛ فيجاب؛ لأن دعاءه ﷺ لا يرد، قال: وكذلك القول في سؤالكم الله تعلى بأوليائه؛ فإن الملك يبلغهم؛ فيشفعون له في قضاء تلك الحاجة. والله عليم حكيم. انتهى كلام الشعراني رضي الله تعلى عنه. ولبعضهم:

ومادح النبي ببيت كانا ... له شفيعا في الجنان بانا

وفي الشفاعة استواء من حكى ... ومنشئ البيت. السجلماسي حكى

فائدة: في سنن المهتدين عن محيي الدين النووي أنه قال: ينبغي لمن بلغه فضل في عمل أن يعمل به ولو مرة، ثم قال أيضا: إنه قد نقل ابن بشكوال بسنده أن من بلغه فضل عن عمل؛ فعمل ذلك العمل رجاء ذلك الثواب؛ أعطاه الله ذلك الثواب؛ وإن لم يكن ما بلغه حقا.

ويعزى للشيخ محمذٍ فال بن متالي رحمه الله تعلى:

ومن له فضلٌ عن الله أثر ... وامتثل الأمر رجاء ما ذكر

كان له ذاك وإن لم يكن ... ذاك كذلك جزاء المعتني

(**مَدَحْتُكَ يَا خَيْرَ الأَنَامِ وَلَمْ تَكُنْ لِمَدْحِي فَقِيراً**) أي محتاجا؛ لمدح الله تعلى لك في كتابه الحكيم؛ فقد قال تعلى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وللسان الدين بن الخطيب:

يا مصطفى من قبل نشأة ءادم ... والكون لم تفتح له أغلاق

أيروم مخلوق ثناءك بعد ما ... أثنى على أخلاقك الخلاق

....بَلْ أَنَا الْمُتَكَسِّبُ
لَئِنْ كُنْتُ مِمَّنْ يُحْسِنُ الْمَدْحَ ثُمَّ لَمْ أَقُلْهُ – وَفِيكَ – إِنَّنِي لَمُخَيَّبُ
فَمَدْحُكَ بِالنَّظْمِ الْمُجَوَّدِ حَوْكُهُ زَكَاةٌ عَلَى أَهْلِ الْقَصَائِدِ تُوجَبُ

ولابن الفارض رضي الله تعلى عنه:

كملت محاسنه فلو أهدى السنا للبدر عند تمامه لم يخسف
وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف.

وقال أيضا:

أرى كل مدح للنبي مقصرا وإن بالغ المثني عليه وأكثرا
إذا الله أثنى بالذي هو أهله عليه فما مقدار ما يمدح الورى؟.

(**بَلْ أَنَا الْمُتَكَسِّبُ**) أي الطالب للعطاء بمدحك، والمضطر إليه؛ تكسب: طلب الرزق.

(**لَئِنْ كُنْتُ مِمَّنْ يُحْسِنُ الْمَدْحَ**) أي يتقنه (**ثُمَّ لَمْ أَقُلْهُ وَفِيكَ**) أي والحال أنه فيك صلى الله وسلم عليك (**إِنَّنِي لَمُخَيَّبُ**) – بصيغة اسم المفعول –؛ الخيبة: الخسْر، والجملة جواب القسم المقدر قبل الشرط..

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم.. إلخ.

فمن كان يحسن قول الشعر؛ ثم لم يمدحه ﷺ بشعره؛ فقد خاب مسعاه، وخسر دنيا وءاخرة.

(**فَمَدْحُكَ بِالنَّظْمِ الْمُجَوَّدِ حَوْكُهُ**) أي المزين نسجه (**زَكَاةٌ عَلَى أَهْلِ الْقَصَائِدِ**) جمع قصيدة؛ المنقح من الشعر، المهذب الذي قد أعمل فيه الشاعر فكرته، ولم يقتضبه اقتضابا، وليس إلا ثلاثة أبيات فصاعدا، أو ستة عشر فصاعدا، وقال ابن جني: والذي في العادة أن يسمى ما كان على ثلاثة أبيات أو عشرة أو خمسة عشر: قطعة، وأما ما زاد على ذلك فإنما تسميه العرب قصيدة. (**تُوجَبُ**) شرعا، كما مر أول هذا التعليق فانظره، وقد صرح بالوجوب القاضي عياض.

عَلَيْكَ صَلاَةُ اللهِ ثُمَّ سَلاَمُهُ وَءَالِكَ وَالأَصْحَابِ مَا ذَرَّ كَوْكَبُ
عَلَيْكَ مِنَ الْمَوْلَى الْمُهَيْمِنِ رَبِّنَا سَلاَمَانِ مَا نَاحَ الْحَمَامُ الْمُطَرِّبُ

وقد قلت:

في بغية الرائد من رياض علم سقتها السحب من عياض
أن الثنا على النبي فَرْضٌ حُتِمْ لم يك الاسلام بدونه يتِمْ

(عَلَيْكَ صَلاَةُ اللهِ ثُمَّ سَلاَمُهُ وَءَالِكَ وَالأَصْحَابِ مَا): مصدرية ظرفية (ذَرَّ) أي طلع (كَوْكَبُ) أي ما دامت الكواكب تطلع أي مدة دوام الدنيا؛ قال في نور البصر: الصلاة من الله تعلى: الإنعام، ومن العباد: طلبه من الله سبحانه؛ كانت على نبي، أو غيره؛ صدرت من ملك، أو غيره؛ وكل ما ذكروه فيها؛ يرجع إلى ما ذكرته، والسلام من الله تعلى: إنعامه بالسلامة من المكاره، ومن العبد: طلبه منه سبحانه.

(عَلَيْكَ مِنَ الْمَوْلَى الْمُهَيْمِنِ رَبِّنَا سَلاَمَانِ): الصلاة والسلام، (مَا): مصدرية ظرفية (نَاحَ): بكى (الْحَمَامُ الْمُطَرِّبُ): اسم فاعل من طرّب في صوته: رجّعه ومده، وطرب في غنائه: رجع صوته وزينه.

وقد ختم الشيخ رحمه الله تعلى هذه القصيدة بالصلاة عليه ﷺ؛ إذ يتأكد الحث عليها في ءاخر الدعاء، وءاخر الكتاب.

وفي روضة النسرين: أن بعضهم يختم بها الكتاب؛ ليشمل بركتها جميع ما كتبه، ولأنها كما تجب في العمر مرة؛ تجب أيضا عند ذكره، أو سماع ذكره، وتتأكد عند من لا يقول بالوجوب، وقد اختار الوجوب من كل مذهب إمام؛ فمن المالكية: اللخمي، ومن الشافعية: الحليمي، ومن الحنبلية: الطحاوي، ومن الحنفية: ابن بطة، وقال ابن العربي: إنه الأحوط، والنسفي: هو الاحتياط؛ وعليه الجمهور، وقال الكواشي: هو الأدب والاحتياط هـ

ولهذا جرى عليه العمل، وذهب بعضهم إلى وجوب الإكثار منها من غير مشقة، وتندب وراء الواجب في كل قول، وقد جاءت أحاديث متعددة بصلاة الله عشرا على من صلى عليه ﷺ واحدة، أخرجها مسلم، وأبو داود،

والترمذي، وغيرهم.

قال ابن عطاء الله: من صلى الله عليه مرة واحدة؛ كفاه هم الدنيا والآخرة؛ فكيف بمن صلى عليه عشرا.

وقال ابن شافع: انبسط جاهه ﷺ، حتى بلغ المصلي عليه لهذا الأمر العظيم؛ وإلا فمتى يحصل لك أن يصلي عليك الله تعلى؛ فلو عملت في عمرك من جميع الطاعات، ثم صلى عليك الله صلاة واحدة؛ لرجحتْ على عملك؛ فكيف بالعشر. انظر شرح الشيخ الطيب، وحاشية الوزاني عليه.

وقال أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعلى عنه كما في شرح عليش على الإضاءة: صلاة واحدة عليه ﷺ: تفرج كل هم وشدة في الدنيا والآخرة.

وقد قلت:

الاَمْـرُ بالإكثـارِ مِـن الصـلاةِ ... علـى النبيِّ فِـي الحـديثِ ءاتِـي

صـلّى وسـلّم عليـه الله جـلْ ... والصحبِ طـرّاً حـقّ قـدرِه الأَجَـلْ

ثـمّ ثـلاثُ مائـةٍ هـيَ أقـلْ ... الإكثـارِ ذا بعـضٌ عـن المكّـي نَقـلْ

ومـعَ خمسـين لـبعض القـوْمِ ... في كـلِّ ليلـةٍ وكـلِّ يـومِ

وقـال بـل أقلُّـه سـبعمائهْ ... يومـاً كـذا لـيلاً مِـن الملـحِ فِئـهْ.

ثم إنني بعد شرحي للبيتين الأخيرين على أنهما من قصيدة الشيخ تبعا لبعض من شرحوها رأيت مؤلف "دليل الرفاق" ذكر أولهما وحده على أنه تذييل لبعضهم والله أعلم بالصواب.

هذا وقد رأيت - تتمة للفائدة -: أن أختم هذا التعليق بما يعلم منه أن التوسل بالأولياء، وزيارتهم، والتبرك بهم: أمرٌ مطلوبٌ، مرغّبٌ فيه؛ فلا خشية فيه، وأن من خطّأ المسلمين في ذلك: أولى بالخطإ منهم.

قال الشيخ زروق في عدة المريد: لن ياتي ءاخر هذه الأمة بأهدى مما أتى به أولها. وفي المدخل: أن هذا الكلام للإمام مالك رحمه الله تعلى؛ فأقول وبالله تعلى التوفيق:

خاتمة:

قال الشيخ زروق في قواعده: **قاعدة**: لا يشفع عند الله تعلى أحد إلا بإذنه، وقد أمر بابتغاء الوسيلة إليه؛ فقيل: هي "لا إله إلا الله"، وقيل: اتباع رسول الله ﷺ، وقيل اتباع في العموم؛ فيتوسل بالأعمال، كأصحاب الغار الذين دعا كل أحد بأفضل عمله، وبالأشخاص، كتوسل عمر بالعباس رضي الله تعلى عنهما في استسقائه، خرجه البخاري، وجاء الترغيب في دعاء المرء لأخيه بظهر الغيب، وفي دعاء المرء لأخيه مطلقا، وقال عليه السلام لعمر رضي الله تعلى عنه حين ذهب لعمرة له: «أشرِكْنا في دعائك يا أخي»؛ وذلك لتعليم الأمة؛ وإلا فهو عليه السلام وسيلة الوسائل، وأساس الخيرات والفضائل. انتهى محل الحاجة منه.

وقال العلامة العارف بالله تعلى الشيخ أحمد الصاوي: ابتغاء الوسيلة فعل المأمورات، أو ما يقرب إليه مطلقا، ومن جملة ذلك محبة أنبياء الله، وأوليائه، والصدقات، وزيارة أحباب الله، وكثرة الدعاء، وصلة الرحم، وكثرة الذكر، وغير ذلك؛ فالمعنى: كل ما يقربكم إلى الله فالزموه، واتركوا ما يبعدكم عنه؛ إذا علمتَ ذلك؛ فمن الضلال البين والخسران الظاهر: تكفير المسلمين بزيارة أولياء الله تعلى؛ زاعمين أن زيارتهم من عبادة غير الله، كلا بل هي من جملة المحبة في الله، التي قال فيها رسول الله ﷺ: «ألا لا إيمان لمن لا محبة له»، والوسيلة له التي قال الله فيها ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾. انتهى منه.

وفي المعيار الجديد للشريف العلامة سيدي المهدي الوزاني: أن التوسل برسول الله ﷺ، وبخيار أمته: أمرٌ مجمع عليه عند الأيمة المعتبرين؛ فالمنكر له يجري حكمه على جاحد الإجماع.

قال القسطلاني في المواهب: ثم إن كلا من الاستغاثة، والتوسل، والتشفع، والتوجه بالنبي ﷺ - كما ذكره في تحقيق النصرة ومصباح الظلام -: واقعٌ

في كل حال: قبل خلقه وبعده، في حياته في الدنيا وبعدها في البرزخ، وبعده في عرصات القيامة إلخ.

ثم ذكر عن الشيخ الطيب الفاسي ما لفظه: وأما التوسل بأولياء الله؛ فمما أجمع عليه الأيمة المهتدون، قال ابن عرضون: اعلم أن التوسل بأولياء الله تعلى عموما: سببٌ في قضاء الحاجات، ونيل الكرامات، وكذا التوسل بأهل بيت النبي ﷺ؛ لكرامتهم عند الله تعلى هـ انظر بقيته.

ثم ساق كثيرا من أدلة مشروعية التوسل. انظرها فيه.

وذكر قبل هذا أن التوسل بالأنبياء والأولياء والعارفين: لم يزل قديما وحديثا من سنن المسلمين، ولا نعرف أحدا أنكره غير ابن تيمية؛ من المتقدمين ولا من المتأخرين هـ

وقال الشيخ الطيب بعد كلام ما نصه: فإن كل نعمة - وإن كانت في الحقيقة من الله ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ - فقد اقتضت حكمته تعلى أن يجعل الواسطة في ذلك الذي تظهر على يديه تلك النعمة وبيده مفاتح خزائنها: سيدنا محمد ﷺ كما قال القطب مولانا عبد السلام، ولا شيء إلا وهو به منوط، وكما قال بعض البكريين:

مـا أرسلَ الـرحمنُ أو يرسلُ ... مـن رحمـةٍ تصـعدُ أو تنْـزلُ
في ملكـوتِ اللهِ أو مُلكِـهِ ... مِـن كـل مـا يَخـتصُّ أو يشـملُ
إلا وطـه المصـطفى عبـدُهُ ... نبيُّـه مختـارُه المرسـلُ
واسـطةٌ فيهـا وأصْـلٌ لهـا ... يَعلـم هـذا كـلُّ مـن يعقـلُ
فلُـذْ بـه في كـل مـا تَرتجـي ... فهْـو شـفيعٌ دائمـا يُقبـلُ
وعُـذْ بـه في كـل مـا تَختشِـي ... فإنـه المأمـلُ والمعقـلُ
وحُـطَّ أحمـالَ الرّجـا عنـدهُ ... فإنـه المرجـعُ والموئـلُ
ونـادِهِ إن أزمـةٌ أنشـبتْ ... أظفارَهـا واسـتحكمَ المعضِـلُ
يـا أكـرمَ الخلـقِ علـى ربِّـه ... وخـيرَ مَـن فـيهم بـهِ يُسـألُ

قد مسّني الكربُ وكم مرةً ... فرّجتَ كرباً بعضُه يُذهلُ
ولن ترى أعجزَ مني فمَا ... لشدةٍ أقوَى ولا أحملُ
فبالذي خصّك بين الورَى ... برتبةٍ عنها العُلى ينْزلُ
عجِّلْ بإذهاب الذي أشتكِي ... وإن توقفتَ فَمَنْ أَسألُ
فحِيلتي ضاقتْ وصبري انقَضى ... ولستُ أدري ما الذي أفعلُ
وأنتَ بابُ الله أيُّ امرئ ... وافاهُ مِن غيرك لا يَدخلُ
صلّى عليكَ اللهُ ما صافحتْ ... زهْرَ الرّوابي نسمةٌ شَمْألُ
مُسلِّماً ما فاح عطْرُ الحِمَى ... وطابَ منه الندُّ والمَنْدَلُ
والآلِ والأصحابِ ما غرّدتْ ... سجيعةٌ أُمْلُودُها مُخْضِلُ

وقد وجد بخط سيدي العربي الفاسي رحمه الله تعلى: روي أن من قرأها، وقال عقبها: "يا رسول الله الإجابة" ثلاثا، مادّاً بها صوته؛ فإن الله تعلى يقضي حاجته، وأنه ما ذكرها أحد في شدة؛ إلا فرّج الله عنه، ولا في حاجة؛ إلا قضاها له.

وذكر في أزهار الرياض: أنها مجربة لإذهاب الضرر؛ فمن كان به ضرر؛ فليقرأها، ويمسح موضعه بعد قوله "فبالذي خصك .." البيتين بعد أن يكررهما ثلاثا. انظر الوزاني.

قال جسوس وفي ءاية ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾ الآية: تصريح بمقام الخلافة العظمى، وإشارة إلى أن المطلوب: التمسكُ بسنته، والتعلق بشريعته، وعدم الانحراف عن طريقته، وأنه باب الله الأعظم، وأن جميع ما يخرج من الخزائن الإلهية دنيا وأخرى؛ إنما يخرج على يديه ﷺ: «الله المعطي وأنا القاسم» هـ

وقد عقد الشيخ سيدي زروق في النصح الأنفع فصلا في التبرك بآثار أهل الخير أحياء أو ميتين، كزيارة مقابرهم، والشرب من فضلة الرجل الصالح، والتمسح بفضلة وضوئه، وأخذ شعره، والتكفين بثوبه، وأخذ اللقمة من يده،

....

ولباس ثوبه، والتبرك بموضع جلس فيه، أو ماء شرب منه، أو حجر قعد عليه، أو مسه بيده، أو تراب ونحوه. فراجعه.

وقد نقل كلامه زين بن اجّمد في "نهر العسل المصفى"، ثم قال: إن الشيخ زروق يتحصَّل من كلامه أنه ناقل للإجماع - أي على التبرك بآثار رسول الله ﷺ وقائل بالتأسي - ويدل على التأسي أيضا قوله - أي الشيخ زروق - : واعلم أن الناس لم يزالوا يتبركون بآثار أهل الخير؛ كابرا عن كابر من أكابر العلماء، والصالحين، من غير نكير، ولا داعية للسكوت، وهو - يعني التبرك - مما تتوفر الدواعي للعمل به طبعا؛ فلو كان حراما؛ لنص عليه الشارع، وحذّر منه الأيمة قديما هـ

وقال الشيخ زروق أيضا في القواعد: إن كل من يتبرك به في حياته؛ يجوز التبرك به بعد موته، كذا قاله الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعلى في كتاب ءاداب السفر، قال: ويجوز شد الرحال لهذا الغرض، ولا يعارضه حديث «لا تشد الرحال إلا للمساجد الثلاثة»؛ لتساوي المساجد في الفضل، دون الثلاث، وتفاوت العلماء، والصلحاء في الفضل؛ فتجوز الرحلة عن الفاضل للأفضل، ويعرف ذلك من كراماته، وعمله؛ سيما من ظهرت كرامته بعد موته مثلها في حياته، كالسبتي، أو أكثر منها في حياته، كأبي يعزى، أو من جربت إجابة الدعاء عند قبره؛ وهو غير واحد في الأقطار؛ وقد أشار إليه الشافعي رحمه الله حيث قال: "قبر موسى الكاظم الترياق المجرب".

وكان شيخنا أبو عبد الله القوري رحمه الله تعلى يقول: إذا كانت الرحمة تنْزل عند ذكرهم؛ فما ظنك بمواطن اجتماعهم على ربهم، ويوم قدومهم عليه بالخروج من هذه الدار، وهو يوم وفاتهم؛ فزيارتهم فيه تهنئة لهم، وتعرض لما يتجدد من نفحات الرحمة عليهم فهي إذاً: مستحبة؛ إن سلمت من محرم، ومكروه بين في أصل الشرع هـ فانظره.

وفي عبد الباقي عند قول المختصر في النذر "وإنما يلزم به ما ندب" إلخ: أن من المندوب زيارة ولي حي، وكذا ميت، وإن أعمل فيه المطي،

وقد سلمه محشوه.

وقال الشيخ زروق رضي الله تعلى عنه في عدة المريد: أما التمسك بـالأموات؛ فهو من قلة الاعتقاد في الأحياء؛ وذلك من نقص الهمّة، اللـهم إلا أن يكـون ذلك على سبيل التعرض لنفحات الرحمـة، والزيـارة لطلـب الزيـادة؛ فمـدد الميت أقوى من مدد الحي؛ لأنه في بساط الحق، ولأن التعلق بـه عـري عـن الأغراض والعوارض، كالاستئناس ونحوه. انظر بقيته.

وقال ابن بونا في الوسيلة:

وحبنـــا للأنبيـــا توقفـــا	إيماننـا عليـه قطعـا فاعرفـا
وحبنـا الـولي ممـا وجبـا	شـرعا وفي دعائـه فلنرغبـا
فكـم ينـال العفـو مـن بركتـه	كمـا ينـال الهـدي مـن زيارتـه

وقد قال أبو يزيد البسطامي رضي الله تعلى عنه: إنه ينبغي لمن زار وليا مـن أولياء الله: أن يستحضر استمداده من حضرته ﷺ؛ فيكون بذلك زائرا له ﷺ هـ

وقال أبو نعيم في الحلية: أفضل ما تعبد بـه المتعبـدون: التحبـب إلى أوليـاء الله بما يحبون، وإن علامة محبة الله محبة أوليائه هـ

وقال الشيخ زروق في قواعده ما نصه:

قاعدة: كرامة التابع شاهدة بصدق المتبع؛ فلـه نسبة مـن حرمتـه؛ لثبـوت الإرث له منه؛ فمن ثم جاز التبرك بآثار أهل الخـير؛ ممـن ظهـرت كرامتـه بديانـة، أو علـم، أو عمـل، أو أثـر ظـاهر، كتكـثير القليـل، والإخبـار عـن الغيب، حسب فراسته، وإجابة الدعوة، وتسخير الماء، والهـواء .. إلى غـير ذلك مما صح من ءايات الأنبياء؛ فيكون كرامة للأولياء؛ إذ الأصل التأسـي، حتى ياتي المخصص، ولم يزل أكـابر الملـة يتبركـون بأهـل الفضـل مـن كـل عصر، وقطر؛ فلزم الاقتداء بهم، حسب ما يهتدي إليه الظـن في الأشـخاص والله أعلم هـ

وفي حاشية ابن حمدون على ميارة: صحيح مذهب مالك: أن التبرك بآثار الكمّل: حسن محمود لأهل العلم، والفضل، الذين يعرفون وجه النية في ذلك، ولا يعصون فيه، ولا يخشى منهم خلل في القصد، بخلاف الجهلة العوام، الذين لا يصلون إلى تصحيح النية فيه؛ فيكره لهم ذلك. انظر بقيته.

وقد ذكر سيدي الحسن اليوسي في محاضراته - بعد أن ذكر عن سيدي عبد الرحمن الثعالبي أنه قال رضي الله عنه: "من رأى من رآني إلى سبعة ضمنت له الجنة" - ما لفظه: واعلم أن مثل هذا يذكر على طريق الرجاء - كما أشرنا إليه - وهو أمر جائز، لا يمنعه عقل، ولا شرع؛ وذلك: أن فضل الله عظيم، لا يُحد بمقياس، وأولياء الله تعلى أبوابٌ يخرج منها هذا الفضل، ولهم مكانة عند ربهم الكريم المتفضل؛ فأي شيء يستبعد في أن يعطي بعضهم الشفاعة في قرنه، أو أكثر، أو أن من مسه لم تمسه النار، كما في قصة ابن حسون، أو أن من رءاه دخل الجنة، أو أن من رأى من رآه إلى سبعة .. أو أكثر؛ هذا كله قريب، وقد أخبر النبي ﷺ في خبره عن أويس القرني رضي الله عنه: «أنه يشفع في مثل - أو عدد - ربيعة ومضر» هـ ؟؟

وفي سنن المهتدين للمواق رحمه الله تعلى: كان سيدي المِنتوري رحمه الله لا يزال ينشدنا :

اسرد حديث الصالحين وسمهم	فبذكرهم تتنَزل الرحمات
واحضر مجالسهم تنل بركاتهم	وقبورهم زرها إذا ما ماتوا

وفي ابن زكري قال ابن عرضون: اعلم أن التوسل بأولياء الله تعلى عموما: سببٌ في قضاء الحاجات، ونيل الكرامات، وكذلك التوسل بأهل بيت النبي ﷺ؛ لكرامتهم عند الله تعلى؛ فما بالك لمن اجتمع فيه الوصفان، كسيدي عبد القادر الجيلاني القائل:

أنا لمريدي جامع لِشتاته وأحرسه من كل شر وفتنة؟

قال: وفي مناقبه رضي الله تعلى عنه قال: من استغاث بي في كربة كشفت عنه، ومن ناداني في شدة فرجت عنه، ومن توسل بي إلى الله تعلى في حاجة قُضيت له، ومن صلى ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب، وسورة الإخلاص إحدى عشرة مرة، ويصلي على النبي ﷺ بعد السلام، ويسلم عليه، ثم يخطو إلى جهة العراق أحد عشر خطوة، ويذكر اسمي، وحاجته تقضى إن شاء الله تعلى هـ انظر بقيته.

ومن قصيدة للشيخ زروق – ذكرها الشيخ أحمدُ بابا رحمه الله تعلى في نيل الابتهاج –:

أنا لمريدي جامع لشتاته	إذا ما سطا جور الزمان بنكبة
وإن كنت في كرب وضيق ووحشة	فنادِ أيا زروق ءات بسرعة
فكم كربة تجلى بمكنون عزنا	وكم طرفة تجنى بأفراد صحبتي

وفي حاشية ابن حمدون على ميارة: أن غالب من يشار إليه من علماء الظاهر؛ ممن له تميز، وشفوف، ونبوغ في الحفظ، والإتقان؛ إنما نال ذلك بمخالطة بعض العارفين، كابن شريح: بمخالطة الجنيد، والعز بن عبد السلام: بمخالطة أبي الحسن الشاذلي، والتقي بن دقيق العيد: بمخالطة أبي العباس المرسي.

قال ابن حجر الهيتمي في فتاويه: جاء عن المشائخ العارفين، والأيمة الوارثين: أنهم قالوا: أقل عقوبة المنكر على الصالحين: أن يحرم بركتهم، قالوا: ويخشى عليه سوء الخاتمة، نعوذ بالله من سوء القضاء.

وقال الإمام المجمع على جلالته وإمامته أبو تراب النّخشبي رضي الله تعلى عنه: إذا ألف القلب الإعراض عن الله تعلى؛ صحبته الوقيعة في أولياء الله تعلى.

وقال العارف الكرماني: ما تعبد متعبد بأكثر من التحبب إلى أولياء الله؛ لأن محبتهم دليل على محبة الله عز وجل.

وقال القشيري قبول قلوب المشائخ للمريد: أصدق شاهد لسعادته، ومن رده قلب شيخ من الشيوخ؛ فلا محالة يرى غب ذلك ولو بعد حين، ومن خذل بترك حرمة الشيوخ؛ فقد أظهر رقم شقاوته، وذلك لا يخطئ هـ

ويكفي في عقوبة المنكر على الأولياء قوله ﷺ في الحديث الصحيح «من ءاذى لي وليا فقد ءاذنته بالحرب» أي أعلمته أني محارب له، ومن حارب الله تعلى لا يفلح أبدا، وقد قال العلماء: لن يحارب الله عاصيا، إلا المنكر على الأولياء، وءاكل الربا، وكلٌّ منهما يخشى عليه خشية قريبة جدا من سوء الخاتمة؛ إذ لا يحارب الله إلا كافرا. انتهى باختصار، فانظره.

وقد ذكر فيها أيضا أنه قد تواتر، وشاع، وذاع: أن من أنكر على هذه الطائفة - يعني الصوفية - لا ينفع الله بعلمه، ويبتلى بأفحش الأمراض، وأقبحها، ولقد جربنا ذلك في كثير من المنكرين. انظر بقيته هـ

وكان الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه يقول: من وقع في عرض ولي؛ ابتلاه الله بموت القلب.

وكان الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه يقول: من غض من ولي؛ ضرب في قلبه بسهم مسموم، ولم يمت حتى تفسد عقيدته؛ فيموت على أسوإ حال.

وكان الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله تعلى عنه يقول: قد تتبعنا أحوال القوم؛ فما رأينا أحداً أنكر عليهم ومات بخير أبدا هـ نقله في المنن الكبرى.

وقال الشيخ زروق في عدة المريد: جرت سنة الله في المنكرين أن يبتليهم ببلايا ظاهرة في الوجود؛ متى خالطهم في الإنكار هوى ولو قل؛ لأنه تعلى يغار لهتك جنابه إلا بإذنه. انظر بقيته.

وقال أيضا في النصح الأنفع: قال بعض المتأخرين: الاعتقاد ولاية، والاعتراض جناية، فإن عرفت فاتبع، وإن جهلت فسلم .. إلى أن قال: وقد ورد في الخبر «خصلتان ليس فوقهما شيء من الشر سوء الظن بالله وسوء

....

الظن بعباد الله وخصلتان ليس فوقهما شيء من الخير حسن الظن بالله وحسن الظن بعباد الله» هـ

ولنختم هذا التعليق بما ختم به نصيحته الكافية؛ تبركا به؛

قال رحمه الله تعلى أنشد بعضهم(1):

ستبدو لك الأسرار بعد اكتتامها كأن الذي قد صانها عنك يخبر

فسلِّم لهم فالقوم أهل عناية وخاملهم في الوصل لا يتحقر

فإن كنت يا هذا بهم متمسكا فإنك طول الدهر لا تتغير

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن لله عبادا من نظر في أحدهم نظرة سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا» وفي حديث الذاكرين: «هم القوم لا يشقى جليسهم».

ولله ما أحسن قول القائل مستغيثا بهم:

يا عباد الإله إن عُبيدا لاذ من أجلكم بركن قوي

فاقبلوه بفضلكم وارحموه واشفعوا فيه للإله العلي

اللهم إنا نتوسل إليك بحبهم؛ فإنهم أحبوك، وما أحبوك حتى أحببتهم، فبحبك إياهم وصَلوا إلى حبك، ونحن لم نصل إلى حبهم فيك، إلا بحظنا منك، فتمِّم لنا ذلك مع العافية الشاملة التامة الكاملة، حتى نلقاك يا أرحم الراحمين. انتهى ما ختم به رحمه الله تعلى، ثم أني أتمثل بقول القاضي عياض رحمه الله تعلى:

ومما زادني طربا وتيها وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نبيا

1) يعني المجاذيب في حكاية ذُكرت عنه، وقد كان خاملا فيما قبلها؛ فاشتهر لذلك.

هذا وقد وافق الفراغ من هذا التعليق يوم الأحد سلخ جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

فالحمد لله الذي بنعمته وجلاله تتم الصالحات

سبحن ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

الملحق الأول:

نص قصيدة "لقد كان خير الخلق" لسيدي أحمد زروق رحمه الله تعلى:

لَقَدْ كَانَ خَيْرُ الْخَلْقِ أَبْهَرَ طَلْعَةً ... مِنَ الْبَدْرِ بَلْ مِنْ شَمْسِهِ هُوَ أَلْهَبُ

جَمِيلُ الْمُحَيَّا أَزْهَرُ اللَّوْنِ أَبْلَجٌ ... بَهِيٌّ بَهِيجُ الْوَجْهِ أَبْيَضُ مُشْرَبُ

أَشَمُّ أَزَجُّ الْحَاجِبَيْنِ مُفَلَّجٌ ... كَحِيلُ جُفُونٍ أَدْعَجُ الْعَيْنِ أَهْدَبُ

مُدَوَّرُ وَجْهٍ أَنْوَرٌ مُتَجَرِّدًا ... كَأَنَّ الْمَهَى فِي وَجْهِهِ لَيْسَ تَغْرُبُ

أَسِيلُ خُدُودٍ أَنْجَلُ كَثُّ لِحْيَةٍ ... طَوِيلُ بَنَانٍ وَاسِعُ الصَّدْرِ أَشْنَبُ

جَلِيلُ الْمُشَاشِ بَادِنٌ مُتَمَاسِكٌ ... ضَلِيعُ فَمٍ ضَخْمُ الْكَرَادِيسِ قُلَّبُ

بَعِيدُ الذِي بَيْنَ الْمَنَاكِبِ وَاسِعٌ ... جَبِيناً طَلِيقُ الْوَجْهِ لَيْسَ يُقَطِّبُ

مُرَجَّلُ شَعْرٍ جَعْدُهُ رَحْبُ رَاحَةٍ ... سَوَاءُ الْحَشَا وَالصَّدْرِ عَذْبٌ مُؤَدَّبُ

إِذَا افْتَرَّ رِيءَ النُّورُ مِنْ فِيهِ خَارِجاً ... كَأَنَّ ثَنَايَاهُ بُرُوقٌ تَلَهَّبُ

حَكَى ثَغْرُهُ حَبَّ الْغَمَامِ إِذَا بَدَا ... ذَكِيُّ الْحِجَا سَبْطُ الْعِظَامِ مُطِيبُ

قَوِيمُ الْقَنَاةِ لَمْ يَكُنْ مُتَرَدِّدًا ... قَصِيراً وَلاَ هُوَ الطَّوِيلُ الْمُشَذَّبُ

وَلَكِنْ وَسِيطاً رَبْعَةَ الْقَدِّ طَائِلاً ... مُمَاشِيَهُ وَلَوْ إِلَى الطُّولِ يُنْسَبُ

طَوِيلُ سُكُوتٍ سَالِمٌ صَدْرُهُ دَقِيـ ... ـقُ مَسْرُبَةٍ أَقْنَى وَجِيهٌ مُرَجَّبُ

وَقَدْ وَسِعَ الأَقْوَامَ حِلْماً وَبَسْطَةً ... وَصَارُوا سَوَاءً فِيهِ وَهْوَ لَهُمْ أَبُ

مَهِيبٌ إِذَا لاَقَيْتَهُ عَنْ بَدِيهَةٍ ... وَإِمَّا تُخَالِطْهُ فَخُلْقٌ مُحَبَّبُ

أَشَدُّ مِنَ الْعَذْرَا حَيَاءً بِخِدْرِهَا ... كَرِيمُ السَّجَايَا لِلرَّدِي مُتَجَنِّبُ

يَزُولُ تَقَلُّعاً وَيَخْطُو تَكَفُّؤاً ... وَيَمْشِي الْهُوَيْنَى دَائِمُ الْبِشْرِ طَيِّبُ

فَدُونَكَ مِنْ أَوْصَافِهِ الْغُرِّ جُمْلَةً ... تَضَمَّنَهَا نَظْمِي بِهَا الدَّهْرَ يَعْذُبُ

أَأَحْمَدُ هَذَا أَحْمَدٌ مُتَوَسِّلاً ... بِمَدْحِكَ وَالأَجْوَادُ بِالْمَدْحِ تُطْلَبُ

مَدَحْتُكَ يَا خَيْرَ الأَنَامِ وَلَمْ تَكُنْ ... لِمَدْحِي فَقِيراً بَلْ أَنَا الْمُتَكَسِّبُ

لَئِنْ كُنْتُ مِمَّنْ يُحْسِنُ الْمَدْحَ ثُمَّ لَمْ ... أَقُلْهُ – وَفِيكَ – إِنَّنِي لَمُخَيَّبُ

فَمَدْحُكَ بِالنَّظْمِ الْمُجَوَّدِ حَوْكُهُ ... زَكَاةٌ عَلَى أَهْلِ الْقَصَائِدِ تُوجَبُ

عَلَيْكَ صَلاَةُ اللهِ ثُمَّ سَلاَمُهُ ... وَءَالِكَ وَالأَصْحَابِ مَا ذَرَّ كَوْكَبُ

عَلَيْكَ مِنَ الْمَوْلَى الْمُهَيْمِنِ رَبِّنَا ... سَلاَمَانِ مَا نَاحَ الْحَمَامُ الْمُطَرِّبُ.

الملحق الثاني:

قصيدة بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف 1427هـ:

للعلامة المجدد الشيخ محمد الحسن بن أحمد الخديم نفعنا الله تعلى به

أيّامُ شهرِ ربيعِ الأولِ البادِي ... سر الوجود به أيامُ أعياد
أيامُ أعياد إسلامٍ ذووه بها ... سُرُّوا كما سِيء ذو زيغٍ وإلحادِ
إنّ المحبّ لَفِي وادٍ يَهيمُ كما ... سِوى المحب يهيمُ الدهرَ في وادي
مدْحُ النبي دليلُ الحب مُبغضُه ... مُضنَى الفُؤاد بما يُخفي منَ احقاد
وليس مَن خاله سُدىً يَلذُّ له ... تعميرُ وقتٍ بأحزابٍ وأوراد
ولا لأحوالِ أهلِ الذكرِ مُغتبطٌ ... ولا لروضته الغَنّا بمُرتاد
شهرُ الربيعِ ربيعٌ للقلوب لهُ ... تَرتاح ممن درَوْا بسر الإيجادِ
فالناسُ ما بين محزونٍ ومُبتهجٍ ... بعِيدِ مولدِ طه ذِي الجدَى الجادِي
يَشدو الشجِيُّ على رغْم الخَليِّ به ... أمداحَ طه بإنشاءٍ وإنشادِ
قد كان ميلادَ خيرِ شهرُ مولدهِ ... وإنّ ميلادَ خيرٍ خيرُ ميلاد
ومُذهبا ترحاً ومُكسِباً فرحاً ... فَفيهِ راحةُ أرواحٍ وأجسادِ
يا مسلمون استهلّ اليوم عيدُكم ... فعاد يُمْنٌ عليكم رائحٌ غادِي
دمتمْ يعود عليكم من سعادتكمْ ... في كل عامٍ بإسعافٍ وإسعادِ
تَحدَّثوا بحديثٍ عنه يُطربكمْ ... واستنشِقوا منه عَرْفَ الرّنْدِ والجادِي
وأكثروا قُرَباً وأظهروا طَرباً ... شكراً لنعمة إيجادٍ وإمداد
وظاهرَ الشرعِ ثنُّوه بباطنه ... جمعاً وتثنيةً مِن دون الإفرادِ
فعظموه وجِدُّوا في توسلكمْ ... سيراً بسيرةِ ءاباءٍ وأجدادِ
إنّ التوسلَ بالهادي منَ انكرهُ ... قال الوزاني انْزوَى عن ملّة الهادي
إذْ ذا من الدين بادٍ بالضرورةِ ما ... إن هو يَخفى على المصريِّ والبادي
تعظيمُ مولدِه أجرَى به عملاً ... مِن الهُداة ذووُ رُشْدٍ وإرشادِ
ومَلْكُ إرْبلَ بعضَ الصالحينَ قَفا ... فيهِ وكان من الأفراد الاَجواد
وذلكَ العُلما رَضُوه إذْ حَضروا ... لأنّه عادلٌ ما هو بالعادي
وكم منَ اطواد علم صَنّفتْ كتبا ... بالحسْن تَروي عنَ اطوادٍ عنَ اطواد

فمُنكرٌ عملَ الميلاد قد رَصدوا ... له كما قعدوا في كل مِرصاد

إنّ السيوطي في حاويه جاء بما ... مِن الأدلة يَشفي غُلّةَ الصادي

وليس مَن ليس في وِرْدٍ ولا صَدَرٍ ... يحكيه في حُسن إصدارٍ وإيرادِ

والقسْطلانِي والشّامي والحلَبي ... والقارئُ الجزريُّ حلْيةً النّادي

مع العراقِي ومن يُنمى إلى حَجر ... إلى سواهم منَ اقطاب وأوتادِ

يَرون ذا العملَ الجاري به حسَناً ... والكلُّ ذو خِبرة طَلاّعُ أنجاد

تلك الأيمةُ حفّاظُ الحديث رَووا ... عن كل ثَبْتٍ صحيح الفهم نقّاد

وما تصانيفُهم تحويه من حُجج ... ما إن يُردُّ بإبْراق وإرعاد

فمن تعرّض للإنكار يُنشدهُ ... لسانُ حالهمُ بنغمة الشّادي:

"قد أتركُ القِرن مصفرّاً أناملُه ... كأنّ أثوابَه مُجّتْ بفِرصاد"

فاعجبْ لإنكاره والفضلُ نسبتُه ... قصرٌ عليه بتعيين وإفراد

قد ضجّت الأرضُ لما قام ينكرُه ... ضِلُّ بن ضلٍّ خطيباً فوق أعوادِ

يَروي أحاديثَ نفس عنه ليس لها ... تصحيحُ متنٍ ولا تصحيحُ إسناد

ما إن يزال قضايا الشرع يعكسُها ... عكسَ النقيض يُعاني جمعَ أضداد

فالأمرُ أصبح في أيدي أُغيلمةٍ ... قد أفسَدوا الدين بغياً أيَّ إفساد

عَدَوْا على مالك والأشعريِّ ومَن ... يَقفو الْجُنَيْدَ وكلٌّ مرشدٌ هادي

فيا بقيّةَ أهل العلم جُهدكمُ ... قوموا بإبعاد عادٍ كلَّ إبعاد

فاللهُ يَكفي الهُدى أضرارَهم ويَقي ... منهمْ ومِن شرِّ أعداءٍ وحساد

بجاه طه الذي حقّ الفداءُ له ... بأنفُس وبأموال وأولادِ

صلّى عليه مع الأصحاب قاطبةً ... ربٌّ تعلى عنَ اضدادٍ وأنداد

ما أنّ مولدَ خيرِ الخلق مُحترَمٌ ... عيدٌ سعيدٌ لخير قائدٌ حادي

تَصدُّ أبصارُ أهل الزيغ عنه وما ... أبصارُ أهل الهدى عنه بصُدّاد

وما إلى حقٍّ انقاد المحِقُّ وما ... أباه زائغُ قلبٍ غيرُ مُنقادِ